همزة الاستفهام بين المفهومين النحوي والبلاغي

د. يوسف أبو العدوس ★
جامعة اليرموك

Abstract

This paper deals with Hamzat al - Istifham (the interrogative glottal stop), its roles in speech and rules that govern its occurrence. It is among the most frequent interrogative particles in the Quran, and it has so many different modes. Also in this paper, many isues will be discussed, some of these issues are:

the nature of Hamzat al - Istifham (the interrogtive glottal stop), and how it differs from other interrogative particles.

Explaining the importance of order in iterrogative sentenses marked by the glottal stop. This includes the discussion of preposing, postposing, addition, and deletion.

Dealing with the problem of intonation and its signifigance in determining, assertion regation and other modes in non-glottal stop interrogative sentences.

Discussing the rhetorical meaning of the interrogative glòttal stop.

ملخـص

يعالج هذا البحث همزة الاستفهام، دورها في الكلام وأحكامها، فهي من أكثر أدوات الاستفهام ورودا في القرآن الكريم، وأساليبها متنوعة، إذ استعملت في الايجاب والنفي بعاطف و بغيره...

والبحث يبدأ أولا بمقدمة عامة تستعرض بشكل سريع طبيعة همزة الاستفهام، والفرق بينها و بين أدوات الاستفهام الأخرى.

فاذا انتهى البحث من ذلك خصص قسماً مستقلا للكشف عن أهمية الرتبة في جملة الاستفهام بالهمزة، وهنا كان الحديث عن التقديم والتأخير، والزيادة، والحذف ...

أما القسم الثالث، فقد كرس لمعالجة قضية التنغيم، وأهميته في تحديد الاثبات والنفي، وغيرها من الأساليب في جملة لم تستعمل فيها همزة الاستفهام.

وقد جرد القسم الرابع للحديث عن المعاني البلاغية لهمزة الاستفهام.

★ دائرة اللغة العربية، جامعة اليرموك ــ اربد.

(١)
الأداة

إن الأدوات : كلمات إذا أخذت مفردة ، غير مؤلفة ، فليس لها دلالة على معنى ، ولا تدل على معانيها إلا في أثناء الجملة .

«فهل» مثلا أداة تستعمل في الاستفهام ، والاستفهام معناها ، ولكن الاستفهام لا يتحقق ، ولا يبين إلا إذا استعملت (هل) في جملة .

و «الباء» ، وحدها ، صوت هجائي ، لا يدل منفردا ، على معنى من المعاني ، ولا تبين دلالتها على الاستعانة مثلاً إلاّ إذا استعملت في جملة ...

والأدوات في العربية كثيرة ، دخلت الاستعمال على صورة مجموعات ، كل مجموعة منها تنتظم عدة أدوات ، تشترك في دلالات عامة ، وتختلف فيما بينها في الاستعمالات الخاصة (١) .

والمعاني التي تطرأ على الجمل في الاستعمال بهذه الأدوات كثيرة منها : الاستفهام وأدواته ، النفي وأدواته ، التوكيد وأدواته ، الشرط وأدواته ، الاستثناء ، أدوات الوصل ... لقد لاحظ النحويون هذه الوظائف لهذه الأدوات ، فألفوا عددا من الكتب وعنونوها باسم معاني الحروف ، مثال ذلك كتاب «معاني الحروف» للرّماني و «الأزهيّة في علم الحروف» للهروي ، «ورصف المباني في حروف المعاني» للمالقي ، و «الجني الداني في حروف المعاني» للمرادي ... و بعضهم خصص جزءاً من كتاب لهذا الموضوع ، مثل «الصاحبي» لابن فارس ، «والمغني» لابن هشام .

من أنواع الإنشاء الطلبي الاستفهام ، وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصة ، وأدوات الاستفهام هي : الهمزة ، وهل ، ومتى ، ومن ، وأيان وأين ، وأنى ، وما ، وكيف ، وكم ، وأي .

(١) مهدي المخزومي ، في النحو العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٨٥م ، ص ٣٧ ــ ٣٨ .

وتنقسم هذه الأدوات من حيث المستفهم عنه إلى أقسام ثلاثة:

١ ــ منها ما يستفهم به عن الحكم وهو إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه، فنقول «هل تحب العلم؟»، «هل يسافر والدك؟ «فأنت في هذه الأمثلة لم تستفهم عن مفرد، وإنما الاستفهام عن الحكم الذي هو إثبات حبك للعلم، وسفر والدك، وهذا إدراك النسبة بين أمرين.

٢ ــ ما يستفهم به عن مفرد مثل «ما البر؟» فيقال القمح، فهنا لم تثبت شيئاً لشيء، وهذا يسمى التصور.

٣ ــ ما يستفهم به عن هذين معا، أي عن القضية التي فيها إثبات حكم أو نفيه، وهو التصديق وعن المفرد الذي هو التصور، وهذا القسم الذي يستفهم به عن التصور والتصديق هو الهمزة، أما الذي يستفهم به عن التصديق فقط، فهو هل، أما الذي يستفهم به عن التصور فقط فهو باقي الأدوات (٢). والهمزة صوت حنجري انفجاري لا هو بالمهموس ولا بالمجهور، والقول بأن الهمزة صوت لا بالمهموس ولا بالمجهور هو الرأي الراجح إذ إن وضع الأوتار الصوتية حال النطق بها لا يسمح بالقول بوجود ما يسمى بالهمس (٣). و يرى ابن جني أن الهمزة حرف مهجور، وهو قول غير دقيق (٤). والهمزة تستعمل في أحد أمرين:

الأول: أن يطلب بها التصديق، أي إدراك النسبة الواقعة بين الطرفين ثبوتا أو نفياً، وذلك إذا كان المتكلم يجهل مضمون الجملة، و يتردد في ثبوتها لأمر أو نفيها عن ذلك الأمر، تقول: أخالدٌ بطل؟ فالسائل هنا تصور خالداً وتصور البطل وتصور النسبة بينهما أي نسبة البطولة لخالد، والسؤال إنما هو عن وقوع هذه النسبة: هل البطولة

(٢) جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، الأشباه والنظائر في النحو، دار الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٢، ص ١١٤، فضل حسن عباس، البلاغة: فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٥م، ١١٧ــ١١٨.

(٣) كمال بشر، علم اللغة العام، القسم الثاني ــ الأصوات ــ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١١٢. وانظر:

Daniel Jones, An Outline of Englsih Phonetics, Heffer and Sons, Cambridge, 8ed., 1956, P. 150.

(٤) ابن جني، أبو الفتح (ت ٣٩٢هـ/١٠٠٢م)، سرّ صناعة الإعراب، تح. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م، ج ١، ص ١١٨.

المنسوبة إلى خالد متحققة أو غير متحققة ؟ فإذا قيل في الجواب : «نعم بطل» أو قيل : «لا ، ليس بطلاً» حصل التصديق ، والجواب في طلب التصديق يكون بنعم أو لا . وحينئذ يمتنع معها ذكر المعادل «أم» فاذا جاءت أم بعدها كانت متّصلة بمعنى «بل» كما في قول الشاعر : (٥)

ولستُ أبالي بعدَ فقْدي مالكاً أمَوْتي ناءٍ أم هُو الآن واقِعُ ؟ (٦)

الثاني : أن يطلب بها التصور، أي إدراك أحد طرق هذه النسبة أو شيء من المتعلقات ، لاحظ الأمثلة التالية :

ـ أمحمدٌ فاز بالجائزة أم صالحٌ ؟

ـ أشاعرٌ أنت أم كاتبٌ ؟

ـ أمكبراً حضرت إلى المدرسة أم متأخراً ؟

و بالتأمل في هذه الأمثلة تجد المتكلم أو السائل في كل مثال منها يصرف النسبة التي تضمنها الكلام ، ولكنه يتردد في شيئين و يطلب تعيين أحدهما .

فهو في المثال الأول يعرف أن الفوز بالجائزة قد وقع فعلا ، وأنه منسوب إلى واحد من اثنين : محمد وصالح ، ولذلك فهو لا يطلب معرفة النسبة ، لأنها معروفة وإنما يطلب معرفة مفرد ، و ينتظر من المسؤول أن يعين له ذلك المفرد و يدله عليه ، ومن أجل ذلك يكون جوابه بالتعيين ، فيقال له : محمد مثلا .

وفي المثال الثاني ، يعلم السائل أن واحدا من شيئين الشعر أو الكتابة ، قد نسب إلى المخاطب مثلا ، ولكنه متردد بينهما ، فلا يدري أهو الشعر أم الكتابة ، فهو إذن لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة له ، ولكنه يسأل عن مفرد ، و يطلب تعيينه ولهذا يجاب بالتعيين ، فيقال له في الجواب : كاتب مثلا .

---

(٥) ابتسام مرهون الصفار، مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي، بغداد، ١٩٦٨م، ص ١٠٥.

(٦) الأزهري ، خالد بن عبد الله (ت ٩٠٥هـ/١٤٩٩م)، شرح التصريح على التوضيح، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج ٢ ، ص ١٤٢.

وفي المثال الثالث، يعلم المستفهم أن حضور المخاطب إلى المدرسة قد وقع فعلا، ولكنه متردد في الحالة التي كان عليها المخاطب، عند حضوره إلى المدرسة، فلا يدري أهي حالة تبكير أم تأخير، فهو إذن لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة له، وإنما يستفهم عن مفرد و يطلب تعيينه، ولهذا يجاب بتعيين إحدى الحالين، فيقال له في الجواب: مبكرا مثلا ...

من ذلك يلاحظ أن همزة الاستفهام يطلب بها معرفة مفرد، وتسمى معرفة المفرد تصورا، إذن فالهمزة من استعمالاتها أن يطلب بها التصور وهو إدراك المفرد (٧). و يلاحظ أن المسؤول عنه بالهمزة التي للتصور يلي الهمزة مباشرة سواء أكان هو:

١ ــ المسند إليه: أأنت الذي جاء لزيارتي أمس أم غيرُك ؟

٢ ــ المسند: أمسافر أنت في الصيف أم مقيم ؟

٣ ــ مفعولا به: أكتابا قرأت في الأدب أم أكثر من كتاب ؟

٤ ــ حالا: أماشيا تغدو إلى عملك أم راكبا ؟

٥ ــ ظرفا: أبعد الحصة قابلت عليا ؟

٦ ــ أو غير ذلك من المتعلقات: أ إلى الشعر تميل أم إلى الأدب ؟ (٨).

وهنا لابد من الإشارة إلى نقطتين مهمتين:

١ ــ يصح أن نقول: «أتضرب زيداً وهو أخوك ؟» ولا يجوز: «هل تضرب زيداً وهو

(٧) ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، قطر الندى و بل الصدى، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر العربي، بيروت (د. ت) ص ٤٣٥، عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية (علم المعاني) دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٩٦ ــ ٩٧.

(٨) عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤، ج ٢، ص ٩٤: في البلاغة العربية (علم المعاني)، ص ١٠١.

أخوك ؟ » ، وذلك لأن هذا استفهام توبيخ ، والتوبيخ لا يكون على المستقبل ، إنما يكون على الحال والماضي ، واستفهام التوبيخ لا يكون إلا بالهمزة . فيصح أن تقول : أتضرب زيداً وهو أخوك توبيخا على ضرب واقع ، فتستفهم بالهمزة عن الحال بخلاف هل ، وذلك لأن هل منقولة للاستفهام ، لذلك التزم فيها مقتضى الاستفهام ، ليبين أصل الغرض الذي نقلت إليه ، وذلك هو تخليصها الفعل المضارع للاستقبال ، لأن حصول المستفهم عنه ينبغي أن يكون استقباليا إذ لا يستفهم عن الواقع في الحال حال شهوده ، فلا تقول : « هل تضرب زيدا وهو أخوك ؟ « فإن تقييد الضرب بالأخوة يفيد شيئين : أحدهما الإنكار، لأن أشنع المناكر ضرب الأخ سواء أكان صديقا أو نسبا . والآخر: الحال ، لأن الأخوة حالية ، إذ لا يراد استقبالها ولا مضيها ، لأن الاستفهام الإنكاري لا يناسبه عرفا إلا الحال ، إذ لا معنى لقولنا : أتضرب زيدا ، وهو سيكون لك أخا .

ويجوز أن تقول : « أتضرب زيدا وهو أخوك ؟ » لأن الاستفهام بالهمزة يصح فيه إرادة الحال ، ومعناه الإنكار، أي لا ينبغي أن يقع منك الضرب ، فالإنكار وإنما يتسلط هنا على الابتغاء ، ويحتمل أن يتسلط على ما لم يقع من الضرب ، لأن الحال أجزاء مضى بعضها و بقي بعضها .

وعلى ذلك كل مضارع أريد به الحال يمتنع دخول « هل » عليه ، سواء قيد بجملة حالية مثل « هل تضرب زيدا وهو أخوك ؟ » أو لم يقيد ، وذلك قوله تعالى « أتقُولونَ علَى اللهِ مَا لا تعْلمون ؟ » (٩) فإن القرائن تدل على أن المراد إنكار القول الحالي ، لا الاستقبالي والماضي ، فهذا الموضع وأمثاله ليس مواضع هل ، لأن المراد بالفعل فيها الحال ، وهي تخلصه للاستقبال .

٢ ــ إذا وجه إليك سؤال مبدوء بهمزة التصديق . فانظر إلى صيغة السؤال ، هل هو إيجابي أو سلبي ثم أجب حسب ما ترى .

(٩) الأعراف ، ٢٨ .

أ ــ إن كانت الهمزة سابقة لفعل موجب، أي غير منفي، فالجواب بنعم للإيجاب و «بلا» للنفي. مثال ذلك: «أتُحب طلب العلم؟» إن قلت: نعم، فأنت تعني أنك تحب طلب العلم، وإن قلت لا فأنت لا تحبه.

ب ــ إن كانت الهمزة سابقة لفعل منفي فالجواب يكون «بلى» إذا أردت الإيجاب، و «نعم» إذا أردت السلب أو النفي، مثال ذلك:

«ألم تأخذ مني خير ما عندي؟» لو قلت: «بلى» فأنت تقر بأنك أخذت ما عندي، ولو قلت: «نعم»، فأنت تنكر أن تكون أخذت خير ما عندي.

و يلاحظ أنه في الفرنسية والإنجليزية يقال الشيء ذاته. تجيب بـ Oui إيجابا و بـ Non سلباً، مثال ذلك ؟ Estce que tu aimes ta mere أتحب أمك؟ فلو قلت: Oui فأنت تحبها وإن قلت Non فأنت لا تحبها.

ومثال آخر: ?Do you like your Mother فالجواب بـ Yes إيجابا و بـ No سلبا، كذلك فإنه يقابل «بلى» في الفرنسية كلمة Si، و يقابل «نعم» كلمة Non، مثال ذلك Ne Voulez - Vous pas nager ألا تحبون السباحة؟ فان قلت Si فأنت تريد أنكم تحبون السباحة، وإن قلت Non فأنتم لا تحبونها.

وفي الإنجليزية تسأل isn't true أليس ذلك حقا؟ فالجواب الإيجابي إمّا Yes وإمّا Itis والجواب السلبي إما No وإما It isnot (١٠).

(٢)

الرتبـــة

وقد تحدث سيبويه عن التقديم والتأخير، ورأى أن التقديم يكون للعناية والانتباه، يقول: «فإذا بنيت الفعل على الاسم قلت: زيد ضربته، فلزمته الهاء، وإنما تريد بقولك

(١٠) انظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص ٩٢؛ من بلاغة النظم العربي ج ٢، ص ٩٩، ١٠٠، وانظر:

R.W. Zandvoort, A Handbook of English Grammar, Longman Group Ltd., London, 1972, P. 206

مبني عليه الفعل في موضع «منطلق» إذا قلت: عبد الله منطلق، فهو في موضع هذا الذي بني على الأول، وارتفع به، فإنما قلت عبد الله فنسبته (فنبهته) له، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء» (١١).

وتحدث ابن جنّي عن التقديم والتأخير وأهميته في الكلام ولاحظ أنّ هذا الموضوع «باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترلك عن بديعة، و يفضي بك الى لطيفة» (١٢)؛ وذلك لأن تعابير اللغة كثيرة، وأساليبها متباينة، منها الإثبات والنفي، ومنها التعجب والاستفهام، ومنها التأكيد والحذف، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة.

إن التقديم والتأخير في الكلام، يكون لعلل لغوية يقتضيها ترتيب معاني الكلام، وكل صورة من هذه الصور تدل على معنى معين، وتصور صورة ذهنية لا تتعداها إلى غيرها، ذلك لأن التقديم والتأخير لا يأتيان للاهتمام والعناية فحسب، بل يأتيان لتحرير المعاني وضبطها (١٣).

ونالت همزة الاستفهام حظاً وافراً من اهتمام النحويين والبلاغيين، ووقوع الاسم والفعل بعدها، وذلك لما لهذه الناحية من أثر في المعنى. وفرق سيبويه بين أدوات الاستفهام والهمزة، فكل أدوات الاستفهام يقبح دخولها على اسم بعده فعل، بينما يصح ذلك دون قبح إذا كانت الأداة هي الهمزة. يقول: «واعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبح أن يصير بعدها الاسم، إذا كان الفعل بعد الاسم، لو قلت: هل زيد قام؟ و: أين زيد ضربته؟ لم يجز إلا في الشعر إلا الألف (الهمزة) لأن الألف قد يبتدأ بعدها الاسم» (١٤).

فالأصل في أدوات الاستفهام اختصاصها بالأفعال، فإن كان الفعل أحد جزأي الجملة

(١١) سيبويه، عمرو بن عثمان (ت ١٨٠هـ/٧٩٦م)، الكتاب، تح، عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج١، ص ٤٢.

(١٢) ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص ٣٨٢.

(١٣) ابن جني، المحتسب، تح. علي النجدي ناصف، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شلبي، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ج١، ص ٦٥ــ٦٦.

(١٤) الكتاب، ح١، ص ١٠١.

ولي أداة الاستفهام، «واعلم أنه إذا اجتمع بعد حروف نحو: هل، وكيف ومن، اسم وفعل، كان الفعل بأن يلي حرف الاستفهام أولى، لأنها عندهم في الأصل من الحروف التي يذكر بعدها الفعل» (١٥).

و يرى سيبويه أنه اذا كان الفعل هو المسئول عنه فالأولى تقديمه، ولكن تأخيره حسن أيضا، «وتقول: أضربت زيداً أم قتلته؟ فالبدء بالفعل أحسن، لأنك إنما تسأل عن أحدهما، لا ترى أيهما كان، ولا تسأل عن موضع أحدهما، فالبدء بالفعل ههنا أحسن (١٦).

ويجيز سيبويه تقديم الاسم إذا كانت الأداة هي الهمزة، وذلك لأن المسئول عنه بها يحسن وقوعه بعدها، فإذا كان الاسم هو المسئول عنه وقع بعدها، ولكنه إن لم يقع بعدها لا يكون النظم فاسداً، أي أن المسئول عنه قد يتأخر، ولكن تقديمه أولى، يقول: «وذلك قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ و: أزيدا لقيت أم بشرا؟، فأنت الآن مدع أن عنده أحدهما، واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى، فتقديم الاسم أحسن، لأنك لا تسأله عن اللقى، وإنما تسأله عن أحد الاسمين، لا تدري أيهما هو، فبدأت بالاسم، لأنك تقصد قصد أن يبين لك أي الاسمين في هذا الحال، وجعلت الاسم الآخر عديلا للأول، فصار الذي لا تسأل عنه بينهما، ولو قلت: ألقيت زيداً أم عمرا؟ كان جائزا حسنا ... وإنما كان تقديم الاسم ههنا أحسن، ولم يجز للآخر إلا أن يكون مؤخرا، لأنه قصد قصد أحد الاسمين فبدأ بأحدهما» (١٧).

و يضع عبد القاهر لموضوع التقديم والتأخير قانونا يحدد فيه اتجاهه، و يرى أنه لا يجوز أن يكون لنظم الكلام، وترتيب أجزائه في الاستفهام، معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر، وذلك أن الاستفهام استخبار، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك، فإذا كان

(١٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ١١٥.

(١٦) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧١.

(١٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٩ــ ١٧٠. وانظر: ابن السراج البغدادي (أبو بكر محمد بن سهل (ت ٣١٦هـ/٩٢٩م)، الأصول في النحو، تح. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ج٢، ص ٢١٣.

كذلك، كان محالا أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام، فيكون المعنى إذا قلت: «أزيد قام؟ غيره إذا قلت: أقام زيد؟ «ثم لا يكون هذا الافتراق في الخبر... و يكون قولنا: «زيد قام» «وقام زيد» سواء وذلك لأنه يؤدي إلى أن تستعمله أمرا، لا سبيل فيه إلى جواب والمعنى في حالة إدخال حرف الاستفهام على الجملة من الكلام، هو أنك تطلب أن يقفك في معنى تلك الجملة، ومؤداها على إثبات أو نفي. فإذا قلت: «أزيد منطلق؟» فأنت تطلب أن يقول لك: نعم هو منطلق، أو يقول لك: لا ما هو منطلق، وإذا كان كذلك، كان محالا أن تكون الجملة إذا دخلتها همزة الاستفهام استخبارا عن المعنى، على وجه لا تكون هي إذا نزعت منها الهمزة إخبارا به على ذلك الوجه (١٨).

ولاحظ الجرجاني أننا إذا بدأنا بالفعل في قولنا: «أفعلت؟» فإن الشك يكون في الفعل نفسه، و يكون الغرض من الاستفهام أن يعلم وجوده. أما إذا قلنا: «أأنت فعلت؟ «أي بدأنا بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، ومثال ذلك قولنا: «أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ «أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟» فهنا البدء يكون بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه ...

وقد يكون الابتداء بالاسم كما في قولنا «أأنت قلت هذا الشعر؟» أأنت كتبت هذا الكتاب؟ ذلك لأننا لا نشك في الفعل أنه كان، حيث أشير إلى الشعر مقولا، والكتاب مكتوبا، وإنما حصل التشكيك في الفاعل من هو؟ (١٩).

والبداية بالفعل كالبداية بالاسم ففي قولنا: «أقلت شعرا قط؟» أرأيت اليوم إنسانا؟ «فإن الكلام يكون مستقيما وصحيحا، وفي سؤالنا: «أأنت قلت شعراً قط؟» أأنت رأيت إنسانا؟ «فإنه يكون خطأ في السؤال في هذا التركيب، لأننا جمعنا بين إثبات الفعل والشك في حدوثه، إذ السؤال في هذا التركيب مسلط على الشخص لا على فعله، فكان ينبغي أن لا

(١٨) انظر: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٤١ هـ/١٠٧٨م)، دلائل الإعجاز، صححه، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م، ص ٨٣ — ٨٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٨٧.

نضيف كلمة قط » (٢٠).

ويمكن هنا أن يبرز سؤال هو: إذا كان التقرير بالهمزة، فأين يقع المقرر منه ؟ في التلخيص وشروحه أن الهمزة يليها المقرر به، فاعلا كان، أو مفعولا، أو غير ذلك، و يرى الجرجاني في آية «أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتِنَا يا إبْراهيمُ ؟، قالَ: بَلْ فعله كَبيرُهم هذا» (٢١) أن إبراهيم قد أجاب بما يدل على أنهم سألوا عن الفاعل، فهم لا يريدون منه أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: «أأنت فعلت هذا ؟ وقال هو: «بل فعله كبيرهم هذا» ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: «فعلت»، أو «لم أفعل» ... وهنا يوجد فرق بين «أأنت فعلت ؟ «و بين» أفعلت ؟ «فإذا قال: أفعلت ؟ فهو يقرره بالفعل، من غير أن يردده بينه و بين غيره، وكان كلامه كلام من يوهم أنه لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة، وإذا قال: أأنت فعلت ؟ كان قد ردد الفعل بينه و بين غيره، ولم يكن منه في نفس الفعل تردد، ولم يكن كلام من يوهم أنه لا يدري، أكان الفعل أم لم يكن ... (٢٢).

وقد يكون الإنكار لفعل قد كان من أصله، مثاله: «أفأصفاكُم ربكُمْ بالبَنين، واتّخذَ مِنَ الملائكةِ إناثاً ؟ إنّكُم لتقُولونَ قولاً عظيماً » (٢٣).

فهذا ردّ على المشركين، وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل، وإذا قدم الاسم في هذا، صار الإنكار في الفاعل: مثال ذلك قولك لمن ادعى خطبة له: أأنتِ قلت هذه الخطبة؟ كذبت، لست ممن يحسن مثلها، أنكرت أن يكون القائل ولم تنكر الخطبة (٢٤).

---

(٢٠) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢١) الأنبياء، ٦٢، ٦٣.

(٢٢) دلائل الإعجاز، ص ٨٩ــ ٩٠ وانظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط ٦، ١٩٦٥، ص ١٧٢ ــ ١٩٧٣.

(٢٣) الاسراء، ٤٠.

(٢٤) دلائل الإعجاز، ص ٨٩.

وقد يراد إنكار الفعل من أصله ، ثم يخرج اللفظ مخرجه إذا كان الإنكار في الفاعل ، ومثال ذلك قولك للرجل يدعي أن قولا كان ممن تعلم أنه لا يقوله : «أهو قال ذلك بالحقيقة ، أم أنت تغلط ؟ تضع الكلام وضعه ، إذا كنت علمت أن ذلك القول ، قد كان من قائل ، لينصرف الإنكار إلى الفاعل ، فيكون أشد لنفي ذلك وإبطاله ... ومثل ذلك قولك للرجل يدعي أمراً وأنت تنكره : «متى كان هذا ؟ أفي الليل أم النهار ؟ وتضع الكلام موضع من سلم أن ذلك قد كان ، ثم تطالبه ببيان وقته ، لكي يتبين كذبه إذا لم يقدر أن يذكر له وقتا و يفتضح (٢٥) .

و يعرض الجرجاني أمثلة مختلفة من تقديم الفعل ، وتقديم الاسم والفعل مضارع في الاستفهام ، مبينا ما بينهما من دقائق لغوية . ففي قولنا : أتفعل ؟ و : أأنت تفعل ؟ فإن الأمر لا يخلو من أن يريد الحال أو الاستقبال ، فإن أردنا الحال كان المعنى شبيها بما مضى في الماضي ، فإذا قلت : أتفعل ، كان المعنى على أنك أردت أن تقرره بفعل هو يفعله ، وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائن ، وإذا قلت : أأنْت تفعل ؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرره بأنه الفاعل ، وكان أمر الفعل في وجوده ظاهرا ، و بحيث لا يحتاج إلى الإقرار بأنه كائن ، وإن أردت بـ «تفعل» المستقبل كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه (٢٦) .

و يعلل الجرجاني تقديم الفعل المضارع بقوله : «وجملة الأمر أنك تنحو بالإنكار نحو الفعل ، فإذا بدأت بالاسم فقلت : «أأنت تفعل ؟ أو : أهو يفعل ؟ «كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور... وإذا قلت : «أأنت تمنعني ؟» : أأنت تأخذ على يدي ؟ «صرت كأنك قلت : إن غيرك الذي يستطيع منعي والأخذ على يدي ، ولست بذاك ، ولقد وضعت نفسك في غير موضعك إذا جعلته لا يكون منه الفعل للعجز ولأنه ليس في وسعه ... وقد يكون أن تجعله لا يجيء منه ، لأنه لا يختاره ولا يرتضيه وأن نفسه نفس تأبى مثله وتكرهه ،

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٩٠.

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ٩١.

ومثاله: «أهو يسأل فلاناً؟ هو أرفع همة من ذلك!... وقد يكون أن تجعله لا يفعله لصغر قدره وقصر همته، وأن نفسه نفس لا تسمو، مثل: «أهو يسمح بمثل هذا؟ «أهو يرتاح للجميل؟ «هو أقصر همة من ذلك، وأقل رغبة في الخير مما تظن» (٢٧).

إن تقديم الاسم والفعل مضارع يقتضي أننا عمدنا بالإنكار إلى ذات من قيل: إنه يفعل «أو قال هو: «إن أفعل» وأردنا ما تريده إذا قلنا: «ليس هو بالذي يفعل وليس مثله يفعل»، ولا يكون هذا المعنى إذا بدأنا بالفعل فقلنا: أتفعل، ولا نستطيع أن نقول لأحدهم في مخاطبة صاحب: «أتخرج في هذا الوقت؟ أتغرر بنفسك؟ إنه أنكر أن يكون بمثابة من يفعل ذلك، وبموضع من يجيء منه ذلك، لأن العلم محيط بأن الناس لا يريدونه، وأنه لا يليق بالحال التي يستعمل فيها هذا الكلام (٢٨).

و يلاحظ أن حال المفعول كحال الفاعل، أي أن تقديم اسم المفعول يقتضي أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع من أن يكون، بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل، فإذا قلت: «أزيداً تضرب؟» كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب، أو بموضع أن يجترأ عليه و يستجاز ذلك فيه، ومن أجل ذلك قدم «غير» في قوله تعالى «قُل أَغَيْرَ اللهِ اتَّخَذ وَلِيّا؟» (٢٩)... وكان له من الحسن والمزية والفخامة؛ ما لا يكون لو أخر فقيل: «قل أأتخذ غير الله ولياً؟» وذلك لأنه حصل بالتقديم معنى قولك: «أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا؟» و: «أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك؟»... ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: «أأتخذ غير الله وليا؟» وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك (٣٠).

فتقديم المفعول أفاد تشديداً واضحاً في الانكار، ولو أخر ما اتضح هذا التشديد.

وقبل الانتقال إلى الحديث عن رأى بعض المحدثين حول قضية التقديم والتأخير، لابد

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٢.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(٢٩) الأنعام، ١٤.
(٣٠) دلائل الإعجاز، ص ٩٥.

من الإشارة الى النقاط التالية، التي تتعلق بالاستفهام الإنكاري:

ـ قد تكون الجملة التالية للاستفهام والمقوية للإنكار استئنافا مثل:
«ألَكُم الذكرُ ولهُ الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضِيزَى» (٣١).

ـ يؤكد الإنكار بلفظ كلا حيث يتلو أسلوب الاستفهام، نحو:
«أيَطْمَعُ كلُّ امرىءٍ منهُم أنْ يدخلَ جنةَ نعيمٍ؟ كلاّ» (٣٢).

ـ قد تكون الجملة المؤكدة للإنكار إضرابا ببل، كقوله تعالى:
«أنحنُ صددنَاكُم عن الهُدى بَعْدَ إذْ جاءكُم؟ بَل كُنتم مُجْرمين» (٣٣).
فجملة (بل كنتم مجرمين)، تأكيد لإنكار أن يكون منهم صد بمعنى ما حدث ذلك.

وقد يؤكد الإنكار بتكرار أساليب الاستفهام التي تدل عليه، وهذا يحدث في موضعين:

ـ أن تتكرر الأدوات المختلفة لفظا، المتفقة معنى كقوله تعالى:
«وإنْ أردتُم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيْتُمْ إحداهنّ قِنْطاراً فلا تأخُذوا منهُ شيئاً، أتَأخذُونَهُ بُهتاناً وإثْماً مُبينَا؟ وكَيْف تَأخذونَهُ وقَدْ أفضى بعضُكم إلى بَعضٍ؟» (٣٤). أنكر الأخذ مرة بالهمزة، ومرة «بكيف» على سبيل التأكيد.

ـ أن تكرر أداة الاستفهام الدالة على الإنكار، وهذا كثير في الهمزة، نحو:
«أفَمَنْ حقّ عليهِ كلمةُ العذابِ أفأنْتَ تنقِذُ مَنْ في النَّار؟» (٣٥).

وأساليب الإنكار قد يتلوها أسلوب الأمر، الذي يراد به التعجيز، وقد يأتي بعد ذلك الأمر، أسلوب الشرط ليفيد السخرية، وهنا لتقوية معنى الإنكار. انظر مثلا قوله تعالى: «أمْ لَهُم ملكُ السّمواتِ والأرض وما بَيْنَهُمَا؟ فليرتَقُوا في الأَسْبَاب» (٣٦). ومثال الأمر فالشرط يتلوان الإنكار قوله تعالى: «قالُوا أجئتنا لِتَأْفِكَنا عن آلِهَتِنَا؟ فأْتِنَا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ مِنَ الصّادِقين؟» (٣٧).

(٣١) النجم، ٢١، ٢٢.
(٣٢) المعارج، ٣٨.
(٣٣) سبأ، ٣٢.
(٣٤) النساء، ٢٠.
(٣٥) الزمر، ١٩.
(٣٦) ص، ١٠.
(٣٧) الأحقاف، ٢٢. وانظر: عبد العليم السيد فودة، أساليب الاستفهام في القرآن، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٠٨ وما بعدها.

وقد رفض إبراهيم أنيس من المحدثين، أن يكون للتقديم أثر في المعنى، يقول معلقا على كلام سيبويه والجرجاني: «وليس يشفع في انحراف الفاعل عن موضعه، أو المفعول عن موضعه، ما ساقه سيبويه من حديث عن العنايه والاهتمام، إذ كما قال الجرجاني، لم يذكر في ذلك مثالا، كذلك لا يشفع في هذا الانحراف فلسفة عبد القاهر، حين أراد توضيح معنى الاهتمام بعبارته المشهورة (قتل الخارجي زيد).» (٣٨).

و يرى إبراهيم أنيس، أن رخص التقديم في النثر غير مقبولة إلا لحاجة ملحة، وهي مقبولة في الشعر، «فما قاله النحاة من جواز تقدم المفعول على فاعله، حين يؤمن اللبس لا مبرر له من أساليب صحيحة، ولا يعدو أن يكون رخصة منّ بها علينا النحاة دون حاجة ملحة إليها، غير أنا قد نقبلها في الشعر وذلك لأن للشعر أسلوبه الخاص» (٣٩).

فالتقديم عند إبراهيم أنيس ليس له أي أثر في المعني الدلالي للتركيب، أما ما ورد منه في القرآن الكريم، فهو لرعاية الفاصلة القرآنية فقط (٤٠). وهنا لابد أن نلاحظ أن الفهم للتقديم والتأخير، يؤدي إلى إغفال المعنى المتحصل بالتقديم. وقد عاب ابن قتيبة على الفراء إهماله المعنى من أجل قوله بالفاصلة القرآنية، فحين فسر الفراء قوله تعالى: «ولمنْ خَافَ مقامَ ربّه جَنّتَان» (٤١) فسر جنّتان: «أنها جنة واحدة، ولكن رعاية الفاصلة اقتضت أن يكون هذا اللفظ مثنى» (٤٢).

فضاق ابن قتيبة بهذا التفسير قائلا: «وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله، ونحن نعوذ بالله من أن يتعسف هذا التعسف، ونجيز على الله ــ جل ثناؤه ــ الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية... فأما أن يكون الله عز وجل وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة من أجل

(٣٨) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٥، ١٩٧٥م، ص ٢٤٤.
(٣٩) المرجع نفسه، ص ٢٤٤.
(٤٠) المرجع السابق، ص ٢٤٥.
(٤١) الرحمن، ٤٦.
(٤٢) الفراء، يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ج ١، ص ١١٨.

رؤوس الآي، فمعاذ الله !» (٤٣).

والحديث عن الرتبة في جملة الاستفهام بالهمزة يقودنا للحديث عن الزيادة، أي ما يضاف إلى الجملة النواة من كلمات يعبر عنها النحاة بالفضلات، أو التتمات، أو غير ذلك، و يعبر عنها البلاغيون بالقيد، يضاف إلى الجملة الأصل (Kernal Sentence) لتحقيق زيادة في المعنى، فكل زيادة في المبنى تعني زيادة في المعنى، (٤٤) علما بأن هذا لا يطرد، ففي كثير من الأحيان فإن التغير يفضي إلى التغير...

وهناك عناصر تدخل على الجملة التوليدية الفعلية، وأُخر تدخل على الجملة التوليدية الاسمية، فتؤدي معنى جديدا يضاف إليها، فتتحول الجملة إلى تحو يلية اسمية، أو فعلية، و يقتضي هذا العنصر الجديد حركة في المبتدأ، أو في الخبر، أو في الفعل، ولا يكون لهذه الحركة دور في المعنى، وإنما هي حركة اقتضاء ليس غير، وإنما الدور للعنصر ذاته (٤٥).

ومن الأدوات التي تضاف في صدر الجملة التوليدية الاسمية، والفعلية، فتتحول إلى تحو يلية اسمية، أو فعلية، ولكنها تحمل معنى غير الذي كانت تفيده قبل دخول الأداة، هل والهمزة. فتقول : أذهب محمد؟ فالجملة التوليدية الفعلية هي : ذهب محمد، فدخلت عليها الهمزة لتحولها إلى جملة تحو يلية فعلية تفيد الاستفهام، ولتر بط تركيبا بما يرتبط به الفاعل وكذلك في الجملة (أ): علي حاضر، وفي الجملة (ب): أحاضر علي ؟، فإن الجملة التوليدية الاسمية هي : علي حاضر، (مسند إليه + مسند) فدخلت الهمزة في الجملة (أ) لتفيد معنى الاستفهام، ولتحو يل الجملة إلى جملة تحو يلية اسمية، أما في الثانية (ب) فهي جملة تحو يلية اسمية مكونة من (مسند + مسند إليه)، أي عنصر الترتيب قد حولها إلى جملة تحو يلية قدم فيها المسند للعناية والاهتمام، ثم دخلت الهمزة لتبقى الاهتمام بالمسند على ما هو عليه،

(٤٣) ابن قتيبة عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) تفسير غريب القرآن، تح السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٤٤٠.

(٤٤) خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٤، ص ٩٦، وانظر:

Jacobs and Rasenbaum, Transformations, Style and Meaning, M.I.T. press, 1971. P. 20.

(٤٥) في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٠١.

ولكنها لتفيد الاستفهام (٤٦) *.

والحذف «باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، فالصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك ألطف ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن، وهذه جملة تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر» (٤٧).

و يقصد بالحذف عنصراً من عناصر التحو يل، نقيضا للزيادة عنصرا من عناصر التحو يل، فكما أن الزيادة هي أية زيادة على الجملة التوليدية النواة لتحو يلها إلى جملة تحو يلية لغرض في المعنى، فإن الحذف يعني أي نقص في الجملة النواة التوليدية الاسمية، أو الفعلية لغرض في المعنى، وتبقى الجملة تحمل معنى يحسن السكوت عليه، وتحمل اسمها الذي كان لها قبل أن يجري عليها التحو يل (٤٨).

و يذكر الجرجاني أن الحذف كثير في لغة العرب، وهم عليه مستمرون يحذفون المبتدأ ويحذفون الفعل، أي أنهم يحذفون الأركان الرئيسة في الجملة النواة (٤٩)، و بعد السياق أو المقام الذي تقال فيه الجملة من الأدلة التي تقوم بدور رئيس في تحديد العنصر (المورفيم) المحذوف. يقول ابن هشام: «إن دليل الحذف نوعان، أحدهما غير صناعي، و ينقسم الى حالي ومقالي،... والثاني صناعي وهذا يختص بمعرفة النحو يين، لأنه إنما عرف من جهة الصناعة» (٥٠). و يرى ابن يعيش أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة، تحصل الفائدة بمجموعها، فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منهما، إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو

(٤٦) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

* الجملة التوليدية: هي الجملة التي تتكون من عدد من الكلمات الرئيسية فيها. بغير نقص أو زيادة، فإن نقص منها جزء اختل معناها، وإن زيد فيها مبنى صرفي آخر قابله زيادة في المعنى. أما الجملة التحو يلية فهي تحو يل الجملة من إطارها التوليدي إلى إطار آخر باستخدام أحد عناصر التحو يل التالية: الترتيب، الزيادة، الحذف، الحركة الإعرابية. «انظر: خليل عمايره، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٧م، ص ٤٣ ــ ٤٤».

(٤٧) دلائل الاعجاز، ص ١١٢.

(٤٨) في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٣٤.

(٤٩) دلائل الإعجاز، ص ١١٣.

(٥٠) ابن هشام، مغني اللبيب، تح. محمد عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت)، ج ٢، ص ٦٠٥.

حالية تغني عن النطق بأحدهما، فيحذف لدلالتها عليه، لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ، جاز أن لا تأتي به ولا يكون مرادا حكما وتقديراً (٥١).

ومن ألوان الحذف في أسلوب الاستفهام أن يحذف المبتدأ، كما في قول ابن الجهم: (٥٢)

أَنْكرت ما رَأَتْ برأسِي فَقَالت ... أَمشيبٌ أمْ لؤلؤٌ منظومُ

أي: أمشيبٌ هذا؟

ويمكن حذف الخبر، كقوله تعالى: «أفمنْ شرَح الله صُدرَهُ للإسلام فهوَ علَى نُورٍ منْ ربّه فَويلٌ للقاسيةِ قُلوبهم» (٥٣) وتقرير الخبر (كمن ليس كذلك).

كذلك يجوز حذف حرف الجر، كقول مالك بن الصمامة: (٥٤)

أَحقّاً عباد الله أن لسْتُ خارِجا ... وَلاَ والِجاً إلا علَى رَقِيبِ؟

أي: أفي حق...؟

ومن الحذف أن يحذف متعلق الاستفهام، وقد يكون هذا المتعلق فعل القول، كقوله تعالى: «وَ يَوْمَ يعرضُ الذينَ كفروا على النّارِ أليْسَ هَذا بالحَق؟» (٥٥)، والتقدير: (يقالِ لهم).

ومن الحذف، حذف أداة الاستفهام مع ما بعدها، وذلك من خواص الهمزة، وعليه قول الرضي في «أمْ مَنْ هُوَ قانِتٌ آناء الليلِ ساجداً وقَائِماً؟» (٥٦) فقد مثل بها لحذف

(٥١) ابن يعيش بن علي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ج ١، ص ٩٤.

(٥٢) ابن المرتضى، علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ/١٠٤٤م)، أمالي المرتضى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ج ٣، ص ٥٥.

(٥٣) الزمر، ٢٢.

(٥٤) أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، الأغاني، دار الكتب، القاهرة، ١٣٤٥هـ، ج ١٩، ص ٨٣: وانظر: أساليب الاستفهام، ص ٤٣٨.

(٥٥) الأحقاف، ٣٤.

(٥٦) الرضي الاستراباذي، محمد بن الحسن (ت ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، الوافي في شرح الكافية، الاستانة، ١٢٧٩هـ، ج ٢، ص ٣٢٦.

المعطوف عليه بأم وجعل التقدير (الكافر خير أم هو قانت).

وقد يحذف المضاف، كقوله تعالى: «أجعلْتُم سقاية الحَاج وعمارةَ المسْجِدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ بالله ؟» (٥٧). والتقدير: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن. أو جعلتم أهل سقاية ... كمن آمن بالله.

ومن ألوان الحذف في أسلوب الاستفهام، أن تحذف الجملة الاسمية، كقوله تعالى: «أفَمَا نحنُ بميّتين» (٥٨)، أي: أنحن مخلدون فما نحن بميّتين، فحذف المعطوف عليه وهو جملة اسمية (٥٩).

وقد يحذف الأسلوب برمته، وذلك بعد أرأيت، حيث يتلوها الشرط، ولا يعقبه الاستفهام كقوله تعالى: «قلْ يا قَوم أرأيتُم إنْ كنتُ علَى بيّنَةٍ من ربّي ورزقَني منهُ رزقاً حسناً، وَمَا أريدُ أن أخالِفَكُم إلى مَا أنْهَاكُم عنْه» (٦٠).

كذلك تحذف الجملة الفعلية التي تلي الهمزة وذلك بعد «أإن»، كقوله تعالى: «قَالوا طَائرُكُم مَعكم أإنْ ذُكِّرتُم ؟» (٦١) ؟ والتقدير أإن ذكرتم تطيركم. و بعد «أأن» كقول الأعشى: (٦٢).

أأن رأتْ رجلا أعشَى أضرَّبه ريبُ المنون ودهر مفند حبل

وفي أساليب «أإذا» من مثل «وقالوا أإذا ضَللنا في الأرضِ إنّا لَفِي خَلْقٍ جَديد ؟ (٦٣) أي: أإذا ضللنا في الأ رض نخلق خلقا جديدا ؟.

---

(٥٧) التوبة، ١٩.

(٥٨) الصافات، ٥٨.

(٥٩) الزمخشري محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ/١١٤٤م)، الكشاف، تح، مصطفى محمد، مطبعة المكتبة التجارية، القاهرة، ١٣٥٤هـ، ج٣، ص ٣٠١.

(٦٠) هود، ٨٧.

(٦١) يس، ١٩.

(٦٢) الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ت ٧ هـ/٦٢٩م)، ديوان الأعشى الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٠٥.

(٦٣) السجدة، ١٠.

وفي أساليب «أو لو»، كقوله تعالى: «أَوَلَوْ كُنّا كَارِهين ؟» (٦٤) أي أتعود ولو كنا كارهين ؟.

ومن حذف الفعلية بعد الهمزة ما جاء في المثل «أحشفاً وسُوء كَيْلة ؟ (٦٥) أي أتجمع حشفا وسوء كيلة ؟.

وفي نهاية حديثنا عن الرتبة في أسلوب الاستفهام بالهمزة لابد من الإشارة إلى النقاط التالية:

ـ حق حرف العطف أن يسبق جملة حتى ما كان له الصدارة فيها، كأدوات الاستفهام، ولم يجز ذلك على الهمزة، فقدمت على العاطف لأن لها من بين أخواتها تمام الصدارة، كقوله تعالى: «أَوعجبتُم أنْ جَاءكم ذكرٌ منْ ربّكم» (٦٦) وقوله: «أَوَمَنْ كانَ ميتاً فَأَحْيَيْنَاه ؟» (٦٧) «قلْ أَرَأيتُمْ أنْ أتاكُم عذابه بياتاً أوْ نهاراً مَاذا يستعجل منهُ المجرمون، أثمّ إذا ما وقع آمنتم به الآن وقدْ كُنتم به تَسْتَعْجلُون ؟» (٦٨).

ـ قد يتلو الشرط الاستفهام بالهمزة، وذلك لتمكين التحقير والسخرية، كقوله تعالى: «وَمنْهُم مَنْ يَنْظر إليكَ، أفأنت تهدي العمي وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُون ؟» (٦٩).

ـ يمكن أن يؤكد المعنى البلاغي للاستفهام بتكرار الأداة، وما يتصل بها للتنبيه والتعجيب، مثال ذلك قوله تعالى: «أَرَأَيْتَ الذي يَنْهَى، عَبْداً إذا صَلّى، أَرَأَيْتَ إنْ كَانَ علَى الهُدَى، أوْ أمَرَ بالتّقْوى، أَرَأَيْتَ إنْ كَذّب وتَولى، أَلم يَعْلَم بأنّ الله يَرى ؟» (٧٠).

---

(٦٤) ابن فارس أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، الصاحبي، طبعة السلفية، (د.ت) ص ٩٨. وانظر: أساليب الاستفهام، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٦٥) أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ/١١٢٤م)، مجمع الأمثال، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية القاهرة، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٢٠٧.

(٦٦) الأعراف، ٦٣، وانظر شرح المفصل، ج ٨، ص ١٥١.

(٦٧) الأنعام، ١٢٢.

(٦٨) يونس، ٥٠، ٥١.

(٦٩) يونس، ٤٣.

(٧٠) العلق، ٩ ـ ١٤.

ـ يمكن أن يرد النصب بعد الفاء والواو تاليين لاستفهام التقرير، كقوله تعالى: «أَلَمْ تكُنْ أَرْضُ اللهِ واسعة فَتُهاجِروا فيها ؟» (٧١).

وكقول الحطيئة: (٧٢)

أَلَـمْ أكُ مُحْرِماً و يكونَ بَيْني وَبَـيْـنَـكُـمُ المـودةُ والإخَـاءُ

ـ قد تسبق الجملة الاستفهامية بخبر وهي معطوفة عليه، أي يمكن عطف الإنشاء على الخبر وعكسه، مثال ذلك كما في الهمزة في الإيجاب: «وإذا بُشّر أحدُهم بما ضربَ للرحمنِ مَثَلا ظلَّ وجهُه مسوداً وهو كَظيم، أو منْ ينشّأ في الحِليةِ وهو في الخصامِ غيرُ مبين ؟» (٧٣).

ومن أمثلتها في النفي: «ذلك جزاؤهم بأنهم كَفرُوا بآياتِنَا وَقَالوا: أإذا كُنّا عِظَاما ورفَاتاً أإنّا لمبعوثُون خلقاً جَديد ؟ أوَلَم يَروا أنّ اللهَ الذي خلقَ السّمواتِ والأرضَ قادرٌ على أنْ يخلقَ مِثْلهم ؟» (٧٤). فجملة «أو لم يروا» معطوفة على «ذلك جزاؤهم» (٧٥).

ـ لا تقع الهمزة بعد «أم»، فلا يقال: «أم أأنت مسافر»، أما غيرها من أدوات الاستفهام فإنها تقع بعد أم، مثال ذلك قوله تعالى: «قُل هلْ يَسْتوي الأَعْمى والبَصِير أمْ هَلْ تَسْتَوي الظُّلماتُ والنُّور» (٧٦).

وقالت قتيلة: (٧٧)

---

(٧١) النساء، ٩٧.

(٧٢) الحطيئة جرول بن أوس (ت نحو ٤٥هـ/٦٦٥م)، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ٥٤.

(٧٣) الزخرف، ١٧، ١٨.

(٧٤) الاسراء، ٩٨، ٩٩.

(٧٥) أساليب الاستفهام، ٤٦٧.

(٧٦) الرعد، ١٦.

(٧٧) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م)، العقد الفريد، تح. أحمد أمين، أحمد الزين، وإبراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٢، ج ٣، ص ٢٦٦.

هـل يـسـمـعـنَّ الـنّضرُ إنْ نَـادَيْـتـه أمْ كَـيْـفَ يـسـمـعُ مـيِّتٌ لا يَنْطِقُ؟

ـ إن كـانـت الـهـمـزة للـتـصور فينبغي أن يذكر بعدها المعادل، أي ما يقابل المسؤول عنه، و يـذكـر الـمـعـادل بـعـد «أم» الـتـي هـي حـرف عطف، فإذا قلت: «أمحمد مسافر؟» وأردت الـتـصور، فيجب أن تذكر المعادل فتقول: «أمحمد مسافر أم زيد؟» ولا تقول أم مقيم لأن المعادل لمحمد والمقابل له زيد.

وتـقـول: أفي الأردن تقول شعرك أم في مصر؟ لأن الذي يعادل الأردن و يقابلها مصر، وقد يـتـرك الـمـعـادل إذا فـهـم مـن الـسـيـاق، كـما إذا عرف السائل الذي تقول له: أفي البيت والـدك؟ عـرف أنـك تـسـأل أفي البيت أم في العمل فيمكن أن تحذف المعادل اعتماداً على فهم المخاطب (٧٨).

وأخيراً لا بد من الوقوف عند مناقشة النحويين لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم «أوَ مخرجيّ هم؟» (٧٩) لما في ذلك من أهمية في تبيان وجهات نظرهم حول رتبة همزة الاستفهام في باب العطف، واستخلاص بعض الأحكام المهمة حول هذه القضية.

وقـد تـضـمـن الـحـديـث تـقـدم همزة الاستفهام على «واو» العطف، والأصل أن يتقدم حرف العطف على أدوات الاستفهام.

قـال ابـن مـالك في إعراب الحديث الأول (٨٠): «وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم «أو مخرجي هم». فالأصل فيه وفي أمثاله تقديم حرف العطف على الهمزة، كما يقدم على غيرها من أدوات الاستفهام، نحو: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكُم آيات الله» (٨١)، ونحو: «فَما لَكُمْ في المُنافقينَ فِئَتَيْنِ» (٨٢)، ونحو: «فأيُّ الفَريقينِ أحقُّ بالأمْنِ» (٨٣)،

(٧٨) البلاغة، فنونها وأفنانها، ص ٧٩ وما بعدها.

(٧٩) الجياني، جمال الدين محمد بن عبد الله (ت ٩٧٢هـ/١٥٦٥م)، شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة لجنة البيان العربي، نشر مكتبة العروبة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٤.

(٨٠) شواهد التوضيح والتصحيح: ١٠ـ١٣.

(٨١) آل عمران، ١٠١.

(٨٢) النساء، ٨٨.

(٨٣) الأنعام، ٨١.

ونحو: «فأنّى يؤفكُونَ» (٨٤)، ونحو: «أمْ هَلْ تستوي الظُّلماتُ والنورُ» (٨٥)، ونحو: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ» (٨٦).

فالأصلُ أن يُجاء بالهمزة بعد العاطف كما جيء بعده بأخواتها، فكان يقول في: «أَفَتَطْمَعُونَ» (٨٧)، وفي: «أَفَكُلَّمَا» (٨٨) وفي: «أَثُمَّ إذا مَا وَقَعَ» (٨٩) فأتطمعون، وفأكلما وثم أئذا ما وقع «لأن أداة الاستفهام جزء من جملة الاستفهام وهي معطوفة على ما قبلها من الجمل، والعاطف لا يتقدم عليه جزء مما عطف.

ولكن خصت الهمزة بتقديمها على العاطف تنبيها على أنها أصل أدوات الاستفهام، لأن الاستفهام له صدر الكلام.

وقد خولف هذا الأصل في غير الهمزة فأرادوا التنبيه عليه، فكانت الهمزة بذلك أولى، لأصالتها في الاستفهام.

وقد غفل الزمخشري، في معظم كلامه في الكشاف، عن هذا المعنى، فادعى أن بين الهمزة وحرف العطف جملة محذوفة معطوفا عليها بالعاطف ما بعده.

وفي هذا من التكلف ومخالفة الأصول ما لا يخفى.

ثم قال ابن مالك: «المدّعي حذف شيء يصح المعنى بدونه، لا تصح دعواه حتى يكون موضع ادعاء الحذف صالحاً للثبوت، و يكون الثبوت مع ذلك أكثر من الحذف، وما نحن بصدده بخلاف ذلك، فلا سبيل إلى تسليم الدعوى.

وقد رجع الزمخشري عن الحذف إلى ترجيح الهمزة على أخواتها بكمال التصدير(٩٠).

(٨٤) العنكبوت، ٦١.
(٨٥) الرعد، ١٦.
(٨٦) التكوير، ٢٦.
(٨٧) البقرة، ٧٥.
(٨٨) البقرة، ٨٧.
(٨٩) يونس، ٥١.
(٩٠) شواهد التوضيح والتصحيح، ص ١٢، ١٣.

ولكن الكرماني يذهب مذهب الزمخشري، و يرد على منتقديه قائلا : «لا يجوز هنا أن يقدر تقديم حرف العطف على الهمزة لأن : «أو مخرجي هم» جواب ورد على قوله : «إذا يخرجك قومك» على سبيل الاستبعاد والتعجب، فكيْف يستقيم العطف ؟ ولأن هذه انشائية وتلك خبرية.

والحق أن الأصل «أو مخرجي هم» فأريد مزيد استبعاد وتعجب، فجيء بحرف العطف على مقدر تقديره: أمعادي هم ومخرجي هم ؟

وأما إنكار الحذف في هذه المواضع فمستبعد، لأن مثل هذه الحذوف من حلية البلاغة، لا سيما الأمارة قائمة عليها، والدليل عليها ههنا وجود العاطف، ولا يجوز العطف على المذكور فيجب أن يقدر بعد الهمزة ما يوافق المعطوف تقريرا للاستبعاد» (٩١).

و بتقصي هذه المسألة في كتب النحاة، يلاحظ أن مذهب سيبويه والجمهور تقديم همزة الاستفهام على الواو والفاء وثم تنبيها على أصالتها في التصدير، بينما تتأخر أدوات الاستفهام الأخرى عن حروف العطف (٩٢).

كما أن الزمخشري الذي خالف سيبويه والجمهور، جزم برأيهم وتابعهم في بعض المواضع.

ففي قوله تعالى : «أَفأمِنَ أهلُ القُرى» (٩٣) قال: إنه عطف على «فأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً».

وقال في «أَئِنّا لمبعوثُونَ أوَ آبَاؤنا الأَولون» (٩٤) ــ فيمن قرأ بفتح الواو ــ إنّ «آباؤنا» عطف على الضمير في «مبعوثون» وأنه اكتفى بالفصل بينهما بهمزة الاستفهام».

(٩١) سلمان القضاة، كتاب إعراب الحديث النبوي ــ دراسة نحوية ــ (رسالة دكتوراة)، باشراف يوسف خليف، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٣، ق ٢، ص ٦١٤، نقلا عن مخطوط عقود الزبرجد على مسند أحمد، لجلال الدين السيوطي، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٩٢) سيبويه، الكتاب، ج ٣، ص ١٨٧ ــ ١٨٩، مغني اللبيب، ص ٢٢.

(٩٣) الاعراف، ٩٥ ــ ٩٧.

(٩٤) الواقعة، ٤٧ ــ ٤٨.

وجوز الوجهين في موضع فقال في قوله تعالى: «أفغيرَ دينِ الله يبغونَ» (٩٥) دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة، ثم توسطت الهمزة بينهما. ويجوز أن يعطف على محذوف تقدير: أيتولون، فغير دين الله يبغون» (٩٦).

و يلاحظ مما سبق أن هنالك رأيين في إعراب هذا الحديث «أو مخرجي هم» وأمثاله:

الأول: أن جملة الاستفهام معطوفة على ما قبلها بالواو، وقدمت الهمزة على «الواو» تنبيها على أصالتها في التصدير، وهذا ما يفهم من مذهب سيبويه والجمهور، وقد أعرب ابن مالك الحديث وفقا لهذا المذهب كما ذكرنا.

و يؤخذ على هذا المذهب تقدم بعض المعطوف، وهو همزة الاستفهام، على حرف العطف، الأصل أن يتقدم حرف العطف على كل جملة المعطوف، وأنه من قبيل عطف الجملة الإنشائية على الخبرية.

الثاني: وهو رأي الزمخشري والكرماني، و يرتكز على تقدير جملة محذوفة بين الهمزة وواو العطف، وهذه الجملة المحذوفة هي المعطوف عليه، وليس هنالك تقديم للهمزة على حرف العطف، لأن الهمزة جزء من المعطوف، ولأن حروف العطف تسبق أدوات الاستفهام الأخرى.

والتقديم عندهم في هذا الحديث: «أمُعَادِيَّ هُمْ ومُخْرجيَّ هُمْ» حيث قدر جملة المعطوف عليه المحذوفة وهي «معادي هم» بين الهمزة وحرف العطف ليصبح العطف عليها.

أما ما يؤخذ على مذهب سيبويه والجمهور وابن مالك من أنه يترتب على مذهبهم تقدم بعض المعطوف على حرف العطف، فيسهله وضوح المعنى وعدم اللبس لكثرة الاستعمال.

---

(٩٥) آل عمران، ٨٢ــ٨٣.

(٩٦) انظر: الكشاف، ج١، ص ٤٤١، مغني اللبيب، ص ٢٤.

وأما تعليلهم لتقدم الهمزة على حروف العطف بأنه تنبيها على أصالتها في التصدير، فليس هنالك ما يثبته، وليس هنالك ما ينقضه، وكل ما نستطيع أن نقوله إن كل النصوص الصحيحة نثرها وشعرها جاءت على هذا النمط.

أما المأخذ الثاني على أصحاب هذا المذهب، وهو أنه يترتب على ما ذهبوا إليه أننا نعطف جملة إنشائية على جملة خبرية، فمردود على من لا يجيز ذلك، وقد أجاز بعض النحويين عطف الخبر على الإنشاء و بالعكس اذا لم يكن هناك لبس، واستدلوا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم «أنت إمامهم واقتد بأضعفهم» (٩٧). وحديث «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه» (٩٨).

تضمن الحديث الأول عطف جملة إنشائية «طلبية باستخدام الأمر»، وهي جملة اقتد بأضعفهم، على جملة خبرية هي جملة أنت إمامهم.

وتضمن الحديث الثاني عطف الجملة الخبرية فتخلفه على الجملة الإنشائية لا تعده وهي جملة طلبية باستخدام النهي.

وقد قال الطيبي في إعراب الحديث الأول «اقتد بأضعفهم» جملة إنشائية عطفت على أنت إمامهم وهي خبرية على تأويل «أمتهمْ» عدل إلى الاسمية دلالة على الثبات (٩٩).

وقال الطيبي أيضا في الحديث الثاني «وإن رُوي مرفوعا كان المنهى الوعد المستعقب للإخلاف، أي: لا تعده موعدا فأنت تخلفه، على أنه جملة خبرية معطوفة على إنشائية (١٠٠).

و يؤيد هذا المذهب قول المبرد «وكل جملة بعدها جملة فعطفها عليها جائز، وإن لم يكن منها» (١٠١).

(٩٧ــ ١٠٠) إعراب الحديث النبوي، ق ٢، ص ٦٠٦ــ ٦٠٨ نقلا عن مخطوط عقود الزبرجد، ج ١، ص ٤٢٨، ج ٢، ص ١٠١.

(١٠١) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق، محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٩، ج ٣، ص ٢٧٩.

أما مذهب الزمخشري والكرماني فيؤخذ عليه أن أصحابه تكلفوا تقدير جملة محذوفة لا دليل على حذفها، وتقدير المحذوف لا يصح ــ كما قال ابن مالك ــ (١٠٢) إلا اذا وردت نصوص بإثباته في بعض المواضع بل في أكثرها، لأنَّ الأصل الذكر، والحذف فرع عليه يجيء لغرض عارض، ولما لم يتوفر أي نص صحيح تقدم فيه حرف العطف على همزة الاستفهام، فقد بطلت دعوى تقدير محذوف.

فإذا أضفنا إلى كل اضطرار الزمخشري في بعض المواضع إلى متابعة مذهب الجمهور، وتجويزه للمذهبين معا في موضع آخر، بل انه قدم مذهبهم على مذهبه في الذكر، إذا أضفنا كل هذا إلى ما سبق اخترنا مذهب سيبويه وابن مالك والجمهور على المذهب الآخر (١٠٣).

(٣)

التنغيم

يمكن تعريف التنغيم بأنه ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام، وربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الاثبات والنفي في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام (١٠٤)*. ولا يكون التنغيم في الجمل إلا لمعنى، فإذا قال قائل: ذهب محمد، فإن الغرض من الجملة، يختلف باختلاف الكلمة التي ينبرها المتكلم، فإذا زاد نبر الكلمة الأولى (ذهب) فإنه يود أن يؤكد الحدث، حدث الذهاب وليس غيره، ولكنه إذا نبر الكلمة الثانية (محمد) فإنه يؤكد أن الذي ذهب هو محمد وليس شفيقا أو غيره، ولكن المتكلم يستعمل النبر أحياناً في إطار أوسع منه على الكلمة في الجملة، فيصحب كلمات الجملة كاملة، إن كانت الجملة مكونة من عدد من الكلمات، أو يكون على الكلمة التي هي الجملة في الكلمة الجملة،

(١٠٢) شواهد التوضيح والتصحيح، ص ١٢، ١٣.

(١٠٣) انظر: إعراب الحديث النبوي، ق ٢، ص ٦١٣ــ٦١٨.

(١٠٤) تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٦٤.

* لقد خلت كتب المتقدمين من الحديث عن التنغيم؛ لأن لا دور له في تغيير الحركة الإعرابية، في حين له دور كبير في توصيل المعنى بين المتكلم والسامع، ونلمس هذا بوضوح في اللهجات العربية المعاصرة، كما هو واضح في كثير من شواهد العربية القديمة.

فتنتقل الجملة من باب نحوي إلى باب نحوي آخر، و يظهر ذلك بارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء النطق بالجملة، للتعبير عن معان مختلفة في نفس الإنسان (١٠٥).

ويمكن تقسيم التنغيم العربي من وجهتي نظر مختلفتين، إحداهما شكل النغمة المنبورة الأخيرة في المجموعة الكلامية، والثانية هي المدى بين أعلى نغمة وأخفضها سعة وضيقا، فأما من الوجهة الأ ولى فينقسم إلى قسمين:

١ ــ اللحن الأ ول الذي ينتهي بنغمة هابطة.

٢ ــ اللحن الثاني الذي ينتهي بنغمة صاعدة أو ثابته أعلى مما قبلها.

وأما من الوجهة الثانية فينقسم إلى ثلا ثة أقسام:

١ ــ المدى الإيجابي. ٢ ــ المدى النسبي. ٣ ــ المدى السلبي.

فمجموع التقسيمات إذا يقع في ستة نماذج تنغيمية مختلفة، هي كل ما في اللغة العربية من نماذج التنغيم، هذه الموازين الستة هي:

١ ــ الإيجابي الهابط. ٢ ــ الإيجابي الصاعد. ٣ ــ النسبي الهابط.

٤ ــ النسبي الصاعد. ٥ ــ السلبي الهابط. ٦ ــ السلبي الصاعد (١٠٦)

وقد أدرك النحاة العرب القدماء قيمة النغمة الصوتية في تحو يل الجملة من باب الى باب، ولكنهم لم يكتبوا عنه كثيراً، لقد حاولوا أن يقرأوا القرآن و يتحدثوا عن الوقف، والابتداء، وعينوا في القرآن الأماكن التي يمكن الوقوف عليها، وأين يمكن أن تصل في القراءة، ولاحظوا الفروق في المعاني التي تتسبب من الوقف الخطأ والوصل غير الصحيح (١٠٧). ولكن لا يمكن اعتبار ذلك دراسة للتنغيم. إن من أجود المحاولات في هذا

(١٠٥) في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٧٣.

(١٠٦) مناهج البحث في اللغة، ص ١٦٥.

(١٠٧) انظر: الزركشي محمد بن بهادر (ت ٧٩٤هـ/١٣٩٢م)، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، (د. ت)، ج ١، ص ٣٤٢ــ ٣٧٥، أبو بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م)، إيضاح الوقف والابتداء، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م. ومن الذين كتبوا عن الـ Stress في اللغة العربية:

Harris Birkeland, Stress Patterns in Arabic, Oslo, 1954 P. q.

الميدان محاولة الدكتور سلمان العاني في كتابه Arabic Phonology . وقد رأى الدكتور العاني أن هناك أربع درجات في النظام التنغيمي، وهذه يمكن أن تحدد بأرقام على النحو التالي :

/١/ - هابط /٢/ - متوسط /٣/ - صاعد /٤/ - صاعد جدا

ورأى أن هذه المستويات الأربعة نسبية وليست مطلقة (١٠٨).

إن التنغيم يساعد في معرفة معنى الكلمة أو الجملة، حين توجد عدة معان محتملة، فهو يوضح رأي المتكلم نحو مضمون الجملة، أو ما يتوقعه ذلك المتكلم من المستمع حتى يتفاعل معه و يفهمه (١٠٩).

و يساعدنا التنغيم في تمييز الأساليب بعضها من بعض، وأنواع الجمل، فنرى أن النغمة المستوية تكون في الجملة الخبرية، وتكون الصاعدة في الاستفهام والأمر، وتكون الهابطة في الندبة والتفجع (١١٠).

وقد رأى (O,Conner) أن المعنى الذي يقصد إليه المتكلم يرتبط ببناء الجملة (الكلمات وتركيبها)، والتنغيم، حيث يندمج هذان العنصران معا ليكونا المعنى الكامل، لما يقال في وقت محدد وفي سياق معين (١١١).

و ينقل التنغيم مشاعرنا من خوف إلى فرح، من غضب الى رضى، من جد إلى هزل، فالجملة يمكن أن تلقى وهي محملة بدلالات متنوعة، فالممثل المسرحي يمكن أن يلفظ العبارة بحيث تكون لها معان متضادة، حيث يبدو ذلك من خلال نغمة الصوت في حالة معينة. وهذا النغم يحدث الاختلاف في المعنى، الذي لا يمكن إدراكه من خلال قراءة الجملة في كتاب مثلا.

(١٠٨) Salman al - Ani, Arabic Phonology, Mouton, The Hague, Paris, 1970. P.qo ff.

(١٠٩) Pike, K. General Characteristics of Intonation, ed. by Dwight Bolinger, penguin Books, England, 1972, p. 55

(١١٠) Gimson A.C., An Introduction to the Pronounciation of Englsih, Edward Arnold, London, 1980, p. 264.

(١١١) O'Connor, J.D. and Arnold, G.F. Intonation of Colloquial English, Longman, London, 1973, p. 46.

و يلاحظ أن الصعود والهبوط في درجة النغم في الصوت الإنساني للتعبير عن المشاعر والآراء، هي ظاهرة عالمية. وقد قام (Bolinger) بدراسة التنغيم في عدد كبير من اللغات، حيث وجد أن خمسا وثلاثين لغة تمتلك هبوطا ختامياً في الجمل الخبرية، بينما تمتلك اثنتان صعوداً ختامياً ...(١١٢).

و يلعب التنغيم دوراً كبيرا في الدلالة على الأسلوب الاستفهامي، أو نقل مشاعر المتكلم وآرائه للمستمع، فمثلا دون ملاحظة درجة الصوت لا يمكن التمييز بين الجملتين التاليتين:

من كلمت زيد. مقابل من كلمت ؟ زيد ؟.

فالجملة الأولى ترتبط بتنغيم هابط لتدل على جملة إثبات، أي الشخص الذي تكلمت معه زيد مقابل مع من تكلمت، هل هو زيد ؟ ترتبط بتنغيم صاعد لتدل على سؤال، حيث أن الحرف قد حذف قبل كلمة زيد، وهناك وقف بعد كلمت.

فهناك إذن جمل ليس فيها أداة استفهام ولكنها يجب أن تقرأ بنغمة صوتية صاعدة، لتكون النغمة في موقع الأداة من حيث الوظيفة والمعنى. يقول تعالى: «يا أيُّها النّبيّ لم تُحرم ما أحلّ لك. تَبْتَغي مرضاتَ أزواجِك» (١١٣) والمقصود: «أتَبْتَغي مرضاة أزواجك ؟» ولو قرأها قارىء بنغمة صوتية مستوية لأخرجها من معناها الذي أريد به. و يقول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قَالُوا: تُحِبُّها ؟ قلتُ: بَهراً عددَ النجم والحَصَى والتُّراب (١١٤)

فإن «تحبها» وهي جملة استفهامية، مع أن لا أثر لأداة تفيد هذا المعنى في الجملة، ومثل هذا كثير في كلام العرب وشعرهم، ولعل الاستعمال اللغوي المعاصر في مختلف أنحاء

(١١٢) Alan Cruttenden, "Falls and Rises: Meanigns and Universals" in Journal of Linguistics, Cambridge University Press, Vol. 17., 1981, P. 84.

(١١٣) التحريم ١؛ وانظر: في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٧٤.

(١١٤) عمر بن أبي ربيعة، (ت ٩٣هـ/٧١٢)، ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح. فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٧.

العالم العربي، قد هدر استعمال أداة الاستفهام معتمداً على النغمة الصوتية، التي بها يحول الجملة الخبرية إلى استفهامية إلى تعجبية إلى إنكارية تقريعية. فالجملة التوليدية: كتب التلميذ الدرس، ونغمتها مستوية، يمكن أن تتحول إلى كتب التلميذ الدرس، بنغمة صوتية صاعدة لتفيد الاستفهام، و بنغمة صاعدة جداً مع نبر إحدى كلمات الجملة، لتفيد معنى الدهشة أو الإعجاب، فالجملة في وضعيها الثاني والثالث هي جملة تحويلية فعلية، جاء التحويل فيها باستخدام النغمة الصوتية للوصول إلى معنى بعينه» ... (١١٥)

كذلك فإن جملة «أبوك في البيت» ونغمتها مستوية هي جملة إثبات، ويمكن أن تتحول إلى «أبوك في البيت؟» بنغمة صوتية صاعدة لتفيد الاستفهام.

و يعبر في كثير من الأحيان عن العواطف والمشاعر الإنسانية، كالحب والكره والغضب والأسى بالتنغيم والإشارات الجسدية، بالإضافة إلى الكلمات، ففي الأسئلة تظهر مشاعرنا بواسطة نوع النغم الذي نستخدمه. هناك فرق مثلا بين من يطرح سؤالا ليستفسر عن معلومات أو للسخرية، كما هو الحال في الجملة «أحللتها؟» فإذا كنا نبحث عن معلومات، فإننا نستخدم نغمة صوتية صاعدة، بينما للسخرية فإننا نستخدم نغمة صوتية صاعدة ــ هابطة.

وهمزة الاستفهام يجوز حذفها إذا فهم المعنى بواسطة التنغيم وقرينة الكلام، انظر مثلا إلى الأمثلة التالية:

قال عمر بن أبي ربيعة: (١١٦)

---

(١١٥) في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٧٤. وانظر كذلك عن التنغيم وتشكيله بواسطة النبر والوصل ودرجة النغم وطبيعة الصوت:

- paul Roberts, Patterns of English, Harcourt, Brace and World, Inc, New York, 1956, p. 227,

- Charles Ferguson, Alingusitic Analysis of Egyption Radio Arabic in Contribution to Arabic linguistics, Harvard University press, 1960, p. 26.

(١١٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ٣٣٨/٢، تاج الدين محمد بن محمد الاسفراييني (ت ٦٨٤هـ/١٢٢٩م) لباب الاعراب، تح. بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمن، دار الرفاعي، الرياض، ١٩٨٤، ص ٤٦٨.

فَـوَاللهِ مـا أدْري وإنـي لحـاسـبٌ بـسـبعٍ رميـنَ الـجَـمْـرَ أمْ بـثَـمـانِ

أراد أبسبع ؟

وقال المتنبي : (١١٧)

أحْـيَـا وأيسرُ مـا لا قـيـتُ مـا قَـتَـلا والـبـيـنُ جَـار عَلى ضَـعفي ومَا عَدلا

أي : أأحيا ؟

وقال ا لمقنع الكندي : (١١٨)

يُـعـاتِـبُـنـي في الـدّيـنِ قَـومـي وإنـمـا دُيـونـيَ في أشْـيـاء تُـكْـسِـبُهم حَمْدا

أي : أيعاتبني ؟

وقال الكميت : (١١٩)

طَـرِبْتُ ومَا شَوْقاً إلى البيضِ أطْرَبُ ولا لَـعِـبـاً مِـنّـي وَذُو الـشَّـوقِ يَلْعَبُ

أي : أذو الشوق يلعب ؟

وقال مجنون ليلى : (١٢٠)

بـالله يَـا ظـبـيَـات الـقـاعِ قُـلْـنَ لَـنا لـيْـلايَ مِـنْـكُـنّ أمْ لَـيْـلَى مِنَ البَشَرِ

تقدير الكلام : أليلاي ؟

---

(١١٧) المتنبي أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، ديوان المتنبي، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٩، مج ٢، ج ٣، ص ٢٨٢.

(١١٨) أبو تمام، حبيب ابن أوس (ت ٢٣١هـ/٨٤٦م)، الحماسة، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٨م، ج ٣، ص ١١٧٨.

(١١٩) الكميت بن يزيد (ت ١٢٦هـ/٧٤٤م)، الهاشميات، جمع محمد محمود الرافعي، القاهرة، (د.ت)، ص ١٥.

(١٢٠) مجنون ليلى، قيس بن الملوح (ت ٦٨هـ/٦٨٨م)، تح، عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص ١٦٨.

وانظر لقوله تعالى :

«وقال نسوةٌ في المدينةِ امرأة العزيزِ تُراودُ فَتَاها عن نفْسِه قد شَغَفَها حبّا» (١٢١) أي : أإمرأة العزيز تفعل ذلك ؟

وقوله :

«ذَرْنِي وَمَنْ خلقتُ وحِيداً ، وجَعَلْتُ لَهُ مالاً ممدودا ، و بنينَ وشُهودا ، ومهدْتُ لَهُ تمهيدا ثمّ يطمع أن أزيدَ ، كَلاّ ، إنّه كان لآياتِنَا عَنِيداً» (١٢٢) .

التقدير : أيطمع أن أزيد كلا ؟ وفي هذا إثبات أنه طامع مع الإنكار والتعجيب والتيئيس التي هي من معاني الهمزة ، وهذا يجعل المعنى أبلغ .

(٤)

المعاني البلاغية لهمزة الاستفهام

في البداية لابد من الإشارة إلى أنّ المعاني البلاغية في الاستفهام تتأثر بالأمور التالية :

١ ــ باختلاف القائل : ففي قوله تعالى : «أفَمَا نَحْنُ بميّتين ، إلاّ موتَتنا الأُولَى وما نَحْنُ بمعذَّبين ؟» (١٢٣) قال أبو حيان : إن كان من قول القرين لقرينه في الآية قبلها ، فهو توبيخ ، وإن كان من قول المؤمنين في الجنة فهو تقرير وغبطة (١٢٤) .

٢ ــ باختلاف المخاطبين : ففي قوله تعالى : «ألَمْ يَعْلَمُوا أنّهُ من يحادِدِ اللهَ وَرسولَهُ فإنّ له نارَ جهنم» (١٢٥) فهنا إن أُريد به المنافقون ، فهو توبيخ وإنكار ، وإن أريد الرسول فتعجب وتعظيم ، وإن كان المقصود المؤمنين فهو تقرير (١٢٦) .

---

(١٢١) يوسف ، ٣٠ .

(١٢٢) المدثر ، ١١ - ١٦ .

(١٢٣) الصافات ، ٥٨ ، ٥٩ .

(١٢٤) أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م) ، البحر المحيط ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٨هـ ، ج ٧ ، ص ٣٦٢ .

(١٢٥) التوبة ، ٦٣ .

(١٢٦) البحر المحيط ، ج ٥ ، ص ٦٤ .

٣ ــ باختلاف حال المخاطبين: قال أبو حيان في «أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجوا من ديارِهم وَهُم ألوفٌ حذرَ الموت ؟» (١٢٧) يفيد الاستفهام التقرير إذا كان المخاطب علم بهذه القصة قبل نزول الآية، ويجوز أنه لم يعرفها إلا منه، ومعناها التنبيه والتعجيب (١٢٨).

٤ ــ باختلاف المقدر إن كان في الأسلوب حذف، كما في قوله تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ اللّيلِ أوْ قائما يَحْذر الآخرةَ و يَرْجو رَحْمَةَ رَبّه ؟» (١٢٩). قدر أبو حيان «أهذا القانت خير أم الكافر «فالمعنى على التقرير (١٣٠).

وهكذا فإن الهمزة قد تخرج عن الاستفهام الحقيقي، فترد لمعان عديدة هي:

الانكـــار: قد يخرج الاستفهام عن معناه الاصلي للدلالة على أن المستفهم عنه أمر منكر عرفا وشرعا، و يكون الاستفهام الإنكاري على أوجه هي:

١ ــ إنكار للتكذيب في الماضي: أي أن المخاطب إن ادعى وقوع شيء فيما مضى أو نزل منزلة المدعي، أتي بالاستفهام الإنكاري تكذيبا له في دعواه، و يسمى أيضا الإنكار الإبطالي كقوله تعالى: «أفأصفاكُم ربُّكم بالبَنِينَ واتَّخَذ من الملائكةِ إنَاثا ؟» (١٣١). أي: أخصكم ربكم بالذكور وخص نفسه بالبنات ؟ أي: أنه لم يفعل هذا، لتعاليه عن الولد مطلقاً.

وكقوله تعالى: «قالوا أبعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولا ؟» (١٣٢) فالكفار ينكرون الرسالات ويجحدون بعث الله للبشر رسلا في كل زمان، ولكنهم خصوا الماضي بالذكر لإفادة أن ما لم يحدث في الماضي، جدير بألا يحدث في الحاضر، أو في المستقبل، فالمراد بإنكار

(١٢٧) البقرة، ٢٤٣.

(١٢٨) البحر المحيط، ج ١، ص ٢٧١.

(١٢٩) الزمر، ٩.

(١٣٠) البحر المحيط، ج ٧، ص ٤١٨. وانظر: أساليب الاستفهام، ص ٢٤٨ وما بعدها.

(١٣١) الاسراء، ٤٠. وانظر: ابن هشام، مغنى اللبيب، البهية، القاهرة، (د.ت) ص ١٧.

(١٣٢) الاسراء، ٩٤.

الماضي في هذه الآية وما ما ثلها ما يعم كل الأ زمنة (١٣٣).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: «أفَعَيِينَا بالخَلْقِ الأَوّل ؟» (١٣٤) وقوله: «أفَسِحْرٌ هذا ؟» (١٣٥).

٢ ــ إنكار للتوبيخ على أمر وقع في الماضي، نحو قولك لمن صدر منه عصيان: أعصيت والدك؟ فعصيان الوالد قد حدث وعبر عنه بفعله المناسب وهو الماضي.

فالإنكار التوبيخي يقتضي أن ما بعدها واقع، وأن فاعله ملوم، كقوله تعالى: «أتَعبدُون ما تنحتُون» (١٣٦) «أغَير الله تدعُون؟» (١٣٧)، أتأخُذونه بُهتانا ؟» (١٣٨) وقول العجاج (١٣٩).

أطَرَباً وأنْتَ قِنَّسرِيُّ والدّهرُ بالإنسانِ دواريُّ ؟

أي: أتطرب وأنت شيخ كبير؟

٣ ــ إنكار للتكذيب في الحال، أو في المستقبل بمعنى لا يكون، نحو قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام عندما دعا قومه إلى التوحيد وكذبوه: «قالَ يا قوم: أرَأَيْتُم إنْ كُنتُ عَلى بيّنةٍ مِنْ رَبي وآتانِي رحمةً مِنْ عِنْدِهِ فَعميتْ عليكم أنُلزِمُكموها وأنتُم لها كارِهُون ؟» (١٤٠).

أي: أنُلْزِمكم تلك الحجة البينة على أني رسول الله أي أنكرهكم على قبولها، والحال أنكم لها كارهون؟ يعني لا يكون هذا الإلزام. فالإنكار في هذين الحالين

(١٣٣) السعد التفتازاني مسعود بن عمر (ت ٧٩٣هـ/١٣٩٠م)، شروح التلخيص، القاهرة، ط ٢، ١٣٤٢هـ، ج ٢، ص ٢٦٠، أساليب الاستفهام، ص ١٩٦ــ١٩٧.

(١٣٤) ق، ١٥.

(١٣٥) الطور، ١٥.

(١٣٦) الصافات، ٩٥.

(١٣٧) الأنعام، ٤٠.

(١٣٨) النساء، ١٩.

(١٣٩) مغني اللبيب، ص ١٨.

(١٤٠) هود، ٢٨.

إنكار لأمر كاذب ، ولذلك يسمى في الحالين الإنكار التكذيبي (١٤١) .

و يرى عبد القاهر الجرجاني أنه إذا «أردت بقولك : أتفعل ؟ في معنى المستقبل كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون أو لا ينبغي ، فمثال الأول :

أيقتلُني والمشرفيُّ مضَاجِعي ومسنونَة زرق كأنياب أغْوال

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده بالقتل ، وإنكار أن يقدر على ذلك و يستطيعه . ومثال الثاني : «أتخرج وقت الخطر؟» (١٤٢) .

و يرى التنوخي أن التوبيخ يكون في الحاضر والمستقبل ، مثال ذلك قوله تعالى : «أفحُكم الجاهليةِ يَبْغونَ ؟» (١٤٣) «أليسَ اللهُ بعزيزٍ ذي انتِقام» (١٤٤) فأنكر أن حكم الجاهلية مما يبغي لحقارته ، وأنكر عليهم سلب العزة من الله تعالى ، وهو منكر في الماضي والحاضر والاستقبال (١٤٥) .

و يعقب السبكي على رأي التنوخي بأن هذا لا ينهض لدفع ما ذكره الائمة من أن الآيتين لا دليل فيهما ، لأن الإنكار فيها وقع على ماض ، وإن كان منكراً سواء أوقع على ماض أم مستقبلا ... و يقول : قد يشهد للتنوخي قوله تعالى : «أتقتُلونَ رَجُلاً أنْ يقولَ رَبي الله ؟» (١٤٦) وقول الشاعر :

أأتْرك إنْ قلَّت دراهمُ خالدٍ زيارَتَه ؟ إنّي إذاً للئيمُ (١٤٧)

(١٤١) السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، مفتاح العلوم ، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت ، (د.ت)، ص ١٥١ ، في البلاغة العبية (علم المعاني) ، ص ١١.

(١٤٢) دلائل الإعجاز، ص ٩١.

(١٤٣) المائدة ، ٥٠.

(١٤٤) الزمر، ٣٧.

(١٤٥) التنوخي ، أبو القاسم علي بن محمد (ت ٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، الأقصى القريب ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٧هـ، ص ٥٧.

(١٤٦) غافر، ٢٨.

(١٤٧) بهاء الدين السبكي (ت ٧٦٣هـ/١٣٦٢م)، عروس الأفراح من شروح التلخيص ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٤٢هـ ، ص ٢٦١ ، ٢٦٤.

واستشهاد السبكي للتنوخي بآية «أتقتلون رجلا ؟» استشهاد جيد، أما ذكره البيت السابق فليس له وجه، لأن الاستفهام فيه لإنكار الوقوع على معنى «لا أترك» (١٤٨).

٤ ــ إنكار للتوبيخ على أمر واقع في الحال أو خيف وقوعه في المستقبل، والمعنى على هذا: لا ينبغي أن يكون هذا الأمر، نحو: «أتعصي ربك ؟» فقوله لمن هو واقع في المنكر أو لمن هم أن يقع فيه، على معنى: لا ينبغي أن يحدث منك حالا أو يصدر عنك استقبالا، و يسمى الإنكار في الحالتين السابقتين الإنكار التوبيخي (١٤٩).

و يأتي إنكار الواقع وإنكار الوقوع في الايجاب وفي النفي كما يلي:

ــ إنكار الواقع في الإيجاب، وذلك إذا كانت الأفعال المنكرة واقعة يراد تقبيحها، والتعجيب منها وتوبيخ فاعلها، و بيان أنه ما كان ينبغي أن تقع كقوله تعالى: «أَقَتَلْتَ نفساً زكيّةً بغَيْرِ نَفْس ؟ (١٥٠).

ــ إنكار الواقع في النفي، كما في قول الأعشى:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أرْمَدا وَعَادَكَ ما عَادَ السليمَ المُسَهَّدا ؟ (١٥١)

ــ إنكار الوقوع في الإيجاب: وذلك إذا كانت الأفعال المنكرة غير واقعة يراد نفي وقوعها واستبعاده والسخرية من مدعي وقوعها، والتعجيب منه، كقوله تعالى: «أصطَفَى البناتِ على البَنينَ ؟» (١٥٢).

ــ إنكار الوقوع في النفي، حيث يراد الإثبات، وهو التقرير بمعنى التحقيق، كقوله تعالى: «أوَلَمْ يَكْفروا بما أوتِيَ مُوسى من قبلُ ؟» (١٥٣).

---

(١٤٨) أساليب الاستفهام، ص ١٩٩.

(١٤٩) في البلاغة العربية (علم المعاني)، ص ١١٢.

(١٥٠) الكهف، ٧٤.

(١٥١) الشنقيطي، محمد محمود بن أحمد (ت ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، الدرر اللوامع في شواهد جمع الجوامع، الخانجي، القاهرة، ١٣٢٨هـ، ج ١، ص ١٦١: ديوان الاعشى الكبير، ص ١٨٥.

(١٥٢) الصافات، ١٥٣.

(١٥٣) القصص، ٤٨. وانظر: أساليب الاستفهام، ص ١٩٤ــ١٩٦.

ولابد في الاستفهام الإنكاري أن يقع المنكر بعد همزة الاستفهام ، وقد يكون المنكر هو الفعل ، نحو قوله تعالى : «قال : أتعبدونَ ما تَنْحَتُون ، والله خَلَقَكُم وما تَعلمون ؟ (١٥٤) .

وقد يسبق المبتدأ الفعل المنكر كقوله تعالى : «أفأنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حتى يكونُوا مُؤْمنين ؟» (١٥٥) وهنا ينكر على الفاعل لسببين :

أ ــ لعجزه عن الفعل ، كما في القول : أهو يتهددني ؟

ب ــ لكونه أعلى همة ، وأسمى خلقا ، مثال ذلك : أهو يرتشي ؟ (١٥٦) .

وقد يكون المنكر المفعول به ، كقوله تعالى : «أفغيرَ دينِ الله يَبْغُون» (١٥٧) وقد يكون المفعول لأجله ، نحو «أإفْكاً آلهةً دونَ الله تُريدون ؟ (١٥٨) أي أتريدون آلهة غير الله كذبا ؟

وقد يتجه الإنكار إلى النسبة ، كقوله تعالى : «ألكُم الذّكَر ولهُ الأنثى ؟» (١٥٩) .

وهكذا فإن الفعل قد لا يلي الهمزة وضابطها أن ينحصر فاعل الفعل ، أو المفعول ، أو غيرهما من المتعلقات عقب الهمزة ، و يعطف عليه غيره بـ «أم» إن وجد ، فيتوجه الإنكار إلى الاسم المقدم بحسب الظاهر، فيلزم من إنكاره إنكار الفعل ، لأن الفعل إذا نفي فاعله الذي لا فاعل له غيره أو مفعوله الذي لا مفعول له غيره ، أو ظرفه الذي لا ظرف له غيره ، لزم انتفاؤه حتما .

وهذه الصورة أبلغ من إيلاء الفعل الهمزة ، إذ أريد إنكاره ، لأن نفي الفعل فيها بطريق الكناية واللزوم ، فهي بمثابة دعوى مع دليلها . فمثلا إذا قال قائل : «بعثني فلان إليك» وأردت تكذيبه ، لأنك تعلم أن فلانا هذا لم يبعثه ، فلك أن تقول : «أبعثك فلان إلي ؟» فتأتي بالفعل عقب الهمزة ، تريد أن تقول له «لم بعثك ؟» وهذه الصورة الأ ولى .

(١٥٤) الصافات ، ٩٥.

(١٥٥) يونس ، ٩٩.

(١٥٦) البلاغة ، فنونها وأفنانها ، ص ١٤٣ .

(١٥٧) آل عمران ، ٨٣ ، وانظر: أساليب الاستفهام ، ص ٢٠٠ .

(١٥٨) الصافات ، ٨٦.

(١٥٩) النجم ، ٢١ .

ولك أن تقول أفلان بعثك إليّ ؟ تنكر بحسب الظاهر العبارة أن يكون فلان هو الباعث موهما بأنه غلط، وأن غيره هو الباعث، وبما أنه لا باعث غيره يلزم إنكار البعث من أصله.

وإذا زعم زاعم أنه سابق أحد ابنيك في أمر فسبقه، وأردت أن تنكر ذلك فلك أن تقول له مكذبا: «أسبقت أحدهما ؟» أي لم يحصل ذلك، لأنهما لا يسبقان في رأيك، وهذه هي الصورة الأولى.

ولك أن تقول: «أعليا سبقت أم محمدا ؟» تنكر بحسب الظاهر أن يكون أحدهما مسبوقا له، ولعل المسبوق غيرهما، وبما أن السبق لم يتعلق بغيرهما يلزم انتفاؤه وإنكاره من أصله.

وإذا قال قائل: زرتك أمس فلم أجدك، وأردت تكذيبه، فلك أن تقول، «أزرتني أمس ؟» بإيلاء الفعل الهمزة، وهذه هي الصورة الأولى، ولك أن تقول: «أليلا زرتني أم نهارا ؟» تنكر أن يكون الليل والنهار وقتا لزيارته فيلزم نفي هذه الزيارة، لأنها إن وقعت فلا بد أن تكون في ليل أو في نهار، وهذه هي الصورة الثانية.

وكذلك إذا قلت: «أراكبا زرتني أم ماشياً ؟» تنكر الحالين بحسب الظاهر فيلزم انتفاء الزيارة، لأنها إن حصلت لابد أن تكون على إحداهما.

ومثل ذلك إذا قلت له: «أفي البيت زرتني ؟» وكان معلوما أنك لم تبرح منزلك وقت الزيارة، تنكر بحسب الظاهر أن يكون البيت موضعا للزيارة وبما أنه لا مكان غيره، فيلزم انتفاء الزيارة من أصلها (١٦٠).

وفي الآية «قُل الذّكَرين حرم أَم الأنثيين، أمْ ما اشْتَملت عليه أرحامُ الأنثيين (١٦١) المقصود نفي الفعل، وهو التحريم لشيء ما ذكر، ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة، بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل، ليكون أبلغ في نفي الفعل، فإن نفيه حينئذ

(١٦٠) من بلاغة النظم العربي، ج ٢، ص ١٩ — ٢٠.
(١٦١) الأنعام، ١٤٣.

يكون بطريق الكناية واللزوم ، وذكر الدعوى مع دليلها ، كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور، لكن واحداً منها ليس بمحرم ، فليس هناك تحريم ، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها ، وتارة ما في بطون الإناث ذكورا كانت أم إناثا مختلفة ، و ينسبون ذلك إلى الله ، فرد عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم (١٦٢) .

وهناك فرق بين النفي الصريح والاستفهام الإنكاري ، والنفي الصريح لا يقال في المستحيل ، ولا يقول به عاقل ، فلا تقول مثلا لمن يحاول أمراً بعيداً : «أنت لا تصعد إلى السماء» ، «أنت لا تنقل الجبال» ولكنك تقول : «أتصعد إلى السماء» : «أتنقل الجبال ؟» فلو كان معنى الأسلوبين واحداً من كل وجه ، لامتنع الإنكار بالاستفهام ، كما أمتنع بالنفي (١٦٣) .

ولا يخفى أن إنكار المستحيل بالاستفهام ، إنما يجيء على سبيل التمثيل ، وتنزيل المخاطب الذي يطلب الأمر البعيد منزلة من يدعي أنه يستطيع أن يصعد إلى السماء ، أو ينقل الجبال ، ووجه الشبه أن كلا يطلب ما لا يستطيع فهو من قبيل الاستعارة التمثيلية (١٦٤) .

والذي يظهر أنه لا مانع أن يقال أيضا : «أنت لا تصعد إلى السماء «على سبيل التمثيل ، والدليل على ذلك : المثل المشهور، وهو: «إنك لا تجني من الشوك العنب» وجني العنب من الشوك مستحيل والكلام تمثيل .

ومن أمثلة إنكار الحال على سبيل التمثيل قوله تعالى : «أفأنْتَ تسمع الصمَّ أَوْ تَهدي العُمْي ؟» (١٦٥) ليس الكلام على ظاهره ، لأن سماع الصم مما لا يدعيه أحد ، بل هو على

(١٦٢) انظر: دلائل الاعجاز، ص ٨٦ــ ٨٩.
(١٦٣) انظر: من بلاغة النظم العربي ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .
(١٦٤) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .
(١٦٥) الزخرف ، ٤٠ .

سبيل التمثيل، وتشبيه النبي (صلى الله عليه وسلم) في محاولته هداية الكفار الذين أصروا على كفرهم بمن يحاول إسماع الصم، وهداية العمي، ووجه الشبه أن كلا يطلب أمراً لا يحصل (١٦٦).

وفي قوله تعالى: «إنك لا تُسمعُ المَوْتَى ولا تُسْمِع الصمَّ الدُّعاءَ إذَا وَلَوا مُدْبِرين» (١٦٧).

فقد نزلت الآية على النبي عليه السلام، في محاولته هداية الكفار، بمنزلة من يحاول إسماع الموتى أو الصم، والمعنى أن حال الكفار كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع، أو كحال الصم الذين لا يسمعون، ولا يفهمون ولا يهتدون، فلا اعتداد بهم، شبه الكفار الذين لا حس لهم إما بالعمي و بالصمّ. وإمّا بالصمّ الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء إلى الله، ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده، فقال: «إذا ولوا مدبرين» أي: إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاماً، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلا، فكيف إذا كان معرضا عنه موليا مدبرا. والآية أدخلت النفي على المستحيل، وذلك على سبيل التمثيل بالاستعارة (١٦٨).

ومن فوائد الاستفهام الإنكاري، أن المتكلم عندما يلقي كلامه بصيغة الاستفهام، فإن ذلك يدل على الثقة، التي تملأ نفسه، لأنه يلقي كلامه وهو يدرك أنه لو كان في كلامه أدنى ريب، لرده عليه قائله جوابا على استفهامه. فإذا قلت لصاحبك: «أأنت كتبت هذه المقالة؟» أتزعم أنك ستبني مسجداً؟» فأنت هنا أنكرت بطريق الاستفهام، وإذا قلت له: «أنت لم تكتب هذه المقالة» و «أنت لا تبني مسجدا»، فإنك أوردت كلامك هنا بطريق النفي الصريح، هل ترى أن المعنى واحد في الموضوعين؟ الحق أن بين المعنيين بونا شاسعا، وفرقا بعيدا، فحينما ألقيت كلامك بصيغة الاستفهام، فكأنك تنتظر من صاحبك جوابا، فهو سيفكر و يراجع نفسه، وسيجد نفسه بعد هذه المراجعة، و بعد هذا التفكير، في

(١٦٦) من بلاغة النظم العربي ج ٢، ص ١٢٤.

(١٦٧) النمل، ٨٠.

(١٦٨) من بلاغة النظم العربي، ج ٢، ص ١٢٣ــ ١٢٤.

ضيق وحرج لا يحير معهما جوابا، فإذا ركب متن الغواية، وسولت له نفسه أن يجادل في الباطل، وأن يقول: نعم، أنا كتبت، وسأبني، فأنت حينذاك تقول له: «أكتب مقالة مثلها» و «ابدأ ببناء المسجد» فإنك ستزيده احراجاً على احراج (١٦٩).

وإذا كان الاستفهام في البيان النبوي يسبق الحكم للتشويق إليه، و بعث النشاط لتلقيه، فإنه أحياناً يأتي متأخراً عنه، لتقريره بإنكاره، اهتماماً بالحكم يستدعي تقديمه، لما تحدث المخالفة في النفس من إثارة، والأدعى للاهتمام به من أجزاء الكلام يقدم على ما سواه. انظر مثلا الأحاديث النبوية التالية:

١ ــ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي صبي، فقالت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولا تدرين أن الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلا، ولهذه أهلا؟» (١٧٠).

٢ ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أخذ الحسين بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كخ كخ، ارم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة؟ أو أنا لا تحل لنا الصدقة» (١٧١).

٣ ــ عن أبي أمامة بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه قال: ذكروا عند النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا فقال: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان» (١٧٢).

٤ ــ من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أما بعد، فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله عز وجل، فيأتي فيقول هذا لكم، وهذا إلي، أفلا جلس في بيت أبيه، أو بيت أمه، حتى تأتيه هديته إن كان

(١٦٩) البلاغة، فنونها، وأفنانها، ص ١٤٢ــ ١٤٣.

(١٧٠) ابن الديبع الزبيدي (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول، الحلبي، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ج ٤، ص ٣٧.

(١٧١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٧٦.

(١٧٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٠.

صادقاً ؟ » (١٧٣).

٥ ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى فقىء في وجهه حب الرمان من حمرة الغضب ، فقال : أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما أهلك من كان قبلكم كثرة التنازع في أمر دينهم ، واختلاف على أنبيائهم » (١٧٤).

في الحديث الأول كان استفهام الرسول عليه السلام ، إنكاراً للشهادة على غيب يستأثر بعلمه ، وهو معاملته سبحانه لمن يفارق الحياة بما قضي مما اقتضت حكمته ، ولو ذكرت أم المؤمنين لفظا يدل على الظن ، لما حصل الإنكار، وإنما كان الإنكار، لأن ظاهر العبارة يشير بالاعتقاد الجازم أن الميت حسن الثواب ، ولم يبلغ انفعاله عليه السلام درجة قصوى ، لأن المثير مجرد الخطأ اليسير في الفهم ، وهو مترتب على الظاهر للمتكلم .

والحديث الثاني تأديب لأحب الناس إليه ، و يثيره منه أن يقرب من فمه تمرة من تمر الصدقة ، تخرج من أموال الناس فتطهرها ، وقد سبق الاستفهام الإنكاري بعبارة الزجر المكررة ، فوقعت عبارة اللوم الاستفهامية تعليلا لصيغة الزجر، حتى يرتبط ما بينهما ، فيتقرر في ذهن المخاطب رضي الله عنه ، فلا يعقل قياس الآتي على منواله .

والحديث الثالث يرى الرسول عليه السلام ، بعض الصحابة يخوضون في ذكر الدنيا ، مكبرين شأنها ، وهم يعلمون أن نبيهم عليه السلام آثر عليها آخرته ، مع التمكن الكامل منها لو أراد ، وعرض عليه أن يكون نبيا ملكاً إذا شاء فلم يشأ يرى منهم هذا فينكر أن يسمع مثله ، ليقبلوا على ما هو خير وأزكى ، من زهد يصحبه التواضع لله وللمؤمنين ، لأن الدنيا إذا أقبلت خيف على المؤمنين أن ينزلقوا بزينتها ، وإعطاء الرسول النصح بالعبارة المؤكدة بالأداة ، و بالتكرار بعد تأكيد الإنكار نفسه بإعادة لفظه ، أمر يدل على بالغ الاهتمام بتقرير المعنى ، وتثبيته في نفوس المؤمنين .

(١٧٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(١٧٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

وفي الحديث الرابع تعلو درجة الإثارة إلى حد بالغ ، لأن ما يتعلق به الإنكار ليس حادثا يرتبط بفرد ، وإنما يتعلق بمبدأ عام يحفظ سلوك ولاة الأمور في الرعية ، ويحفظ مال المسلمين من غلول الخائنين ، ولهذا جمع الصحابة وخطبهم .

وحدة الانفعال تظهر في عبارة الاستفهام ، التي تعيد المخطىء إلى تدبر حاله إذا اعتزل الولاية فجلس في بيت أبيه ، أو بيت أمه ، أكان يهدى إليه ما يدعي ؟ فإذا أجاب نفسه بالنفي ، وهو لاشك مجيبها بالنفي ، استيقن أن ما احتسبه باسم الهديه هو مال المسلمين .

والجملة الشرطية المعقب بها الاستفهام ، تقرير كذب الغالين أموال الدولة باسم الهدية .

أما الحديث الخامس ، فدرجة الإثارة فيه أشد من كل ما سبق ، لأن الأمر أعظم خطرا من الغلول : إنه أمر العقيدة وأصل الإيمان ... (١٧٥) .

وقد يربط الاستفهام الإنكاري بمعان أخرى يستدل عليها من السياق ، ومنها :

ـ الإنكار مع التعريف : كقوله تعالى : «قل أنَدعُو من دونِ الله مَالا ينفعُنا ولا يضرُنا ؟» (١٧٦) .

ـ الإنكار مع التحسر : كقوله تعالى : «أعجزتُ أنْ أكونَ مثلَ هذا الغُراب ؟ (١٧٧) .

ـ الإنكار مع الإيناس : نحو «فراغَ إلى أهْله فجاء بَعجلٍ سَمين ، فقرّبه إليهم ، قَال : أَلاَ تَأْكُلون ؟» (١٧٨) .

ـ الإنكار مع التيئيس : كقوله تعالى : «أيطمعُ كلُّ امرىءٍ مِنْهُمْ أنْ يَدْخُل جنةَ نَعِيم ؟» (١٧٩) .

---

(١٧٥) انظر: عزالدين علي السيد، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٣٥٥ــ٣٥٩.

(١٧٦) الأنعام، ٣١.

(١٧٧) المائدة، ٣١.

(١٧٨) الذاريات، ٣٧.

(١٧٩) المعارج، ٢٨.

ـ الإنكار مع العتاب : نحو: «أأشْفَقتم أنْ تقدِّمُوا بينَ يَدَي نجواكم صدقاتٍ» (١٨٠).

ـ الإنكار مع التحريض : نحو: «وقال الملأُ مِنْ قوم فِرْعون : أتذَر مُوسى وقومَه ليفسدُوا في الأرض ؟» (١٨١).

ـ الإنكار مع التحقير: كقول الفرزدق : (١٨٢)

أبنو كُليب في الفخَارِ كَدارمٍ أم هَلْ أبوكَ مدعدعا كَعقالِ ؟

ـ الإنكار مع التعجيب والتوبيخ : نحو «أم اتّخَذُوا من دُونِ الله شُفَعاء ؟» (١٨٣).

ـ التقرير: وقد يكون المراد من الاستفهام التقرير، وهو حمل المخاطب على الاقرار بما يعرفه اثباتا ونفيا من الأعراض ، ومن أمثلته قول جرير:

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ ركبَ المطَايا وأنْدَى العالمينَ بُطُونَ رَاحِ (١٨٤)

فجرير لم يستفهم على سبيل الحقيقة ، لأن فضل بني أمية وكرمهم ، لا يجهله أحد حتى يستفهم عنهما ، ولو كان استفهاما حقيقيا لما أعطاه الخليفة مائة من الإبل برعاتها . وإنما المراد بالاستفهام مدح بني أمية بشيء معلوم لدى الناس مع جذب المشاعر نحو بني أمية والالتفات إليهم.

ومنه قوله تعالى : «أَلَم نربِّك فينَا وَليدًا ، ولبثتَ فِينَا مِنْ عُمرك سنينَ ؟ (١٨٥) ففرعون يعلم يقينا أن موسى عليه السلام قد عاش في مصر وليدا ، إذن فيس الغرض من الاستفهام معناه الحقيقي، لأن الاستفهام يقتضي الجهل بالمستفهم عنه ، وفرعون كان لا يجهله ، وإنما المراد حمل موسى عليه السلام على الإقرار بذلك ، أو تذكيره به على الأقل ، فيذكر آلاء فرعون عليه في صغره ، وتربيته له ، أملا في أن يراجع موسى نفسه ، و يقلع عن العمل على تقويض

(١٨٠) المجادلة ، ١٣.

(١٨١) الأعراف ، ١٢٧.

(١٨٢) الفرزدق همام بن غالب (ت ١١٠ هـ/٧٢٨م)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، مج ٢ ، ص ١٦٢، وانظر: أساليب الاستفهام، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥.

(١٨٣) الزمر، ٤٣.

(١٨٤) ديوان جرير، ص ١٥٩.

(١٨٥) الشعراء ، ١٨.

عبادة المصريين ، وأنّى لموسى أن يرجع وهو مأمور من الله ؟ .

ومجيء الكلام على صورة الاستفهام ، تعبير حي عن نفسية فرعون ، ومحاولته الدفاع عن عرشه ، بكل وسيلة ، سواء أكانت حربا نفسية ، أم حربا مسلحة ، وفي هذا أيضا محاولة لجذب مشاعر المصريين وإثارة انتباههم (١٨٦) .

واستعمال صيغة الاستفهام في التقرير مجاز مرسل علاقته الاطلاق والتقيد ، وذلك لأن الاستفهام طلب الإقرار من غير سبق جهل بالمستفهم عنه (١٨٧) .

والاستفهام التقريري في الحديث النبوي الشريف ، وسيلة ناجحة في الترغيب أو الترهيب ، وهي أجدى على إملاء الحكم من الأمر، أو النهي الصريحين .
ومن ذلك في الترغيب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، ما تقولون ، يبقي ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا : لا يبقي ذلك من درنه شيئاً ، قال : فذاك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا (١٨٨) .

أما الترهيب فمثاله :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعها ابنة لها ، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فقال لها أتعطين زكاة هذا ؟ قالت لا ، قال : أيسرك أن يسورك الله تعالى بهما يوم القيامة سوارين من نار؟ قال : فخلعتهما فألقتهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالت : هما لله ولرسوله» (١٨٩) .

ومن استعمال الاستفهام التقريري لإلزام المخاطب الحرج ، وإيقاعه في أضيق أموره إصغارا لشأنه ، أو توبيخا على جرمه الحديث التالي :

(١٨٦) من بلاغة النظم العربي ، ج ٢ ، ص ١١٤ .
(١٨٧) المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٥ .
(١٨٨) تيسير الوصول ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .
(١٨٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله تعالى له : ألم أجعل لك سمعاً و بصراً ، ومالا وولدا ؟ وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، أكنت تظن أنك كنت ملاقي يومك هذا ؟ فيقول : لا فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني» (١٩٠).

وقد يقترن التقرير بالشيء المرغوب بمقابله ــ على سبيل المقارنة ــ ليتضح حسن الحسن بقبح القبيح زيادة في تأكيده ، ومثاله :

عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : أتى رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يأمره بإصلاح شعره ، ففعل ثم رجع ، فقال صلى الله عليه وسلم «أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان» (١٩١).

وقد يرتبط التقرير بمعان أخرى تلمح من السياق ، من ذلك :

ــ التقرير والإغراء نحو قوله تعالى : «ألا ترونَ أنّي أوفي الكيل وأنا خيرُ المُنْزلين ؟ (١٩٢).
ــ التقرير والعتاب كقوله تعالى : «أَلَمْ يَأن للذينَ آمَنُوا أن تَخْشَع قلوبُهم لِذِكْرِ الله ؟ (١٩٣).
ــ التقرير والتحقير: نحو قوله تعالى : «أَلَمْ يَكُ نطفَةً مِنْ مني يُمنى ؟ (١٩٤).
ــ التقرير والتزلف : كقوله تعالى : «فإن كانَ لكُم فتحٌ من الله قالوا : ألم نَكُنْ مَعَكُم ؟» (١٩٥).
ــ التقرير والامتنان : نحو قوله تعالى : «ألم نَشْرَحْ لكَ صدرك ؟ (١٩٦).

---

(١٩٠) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٦.
(١٩١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٨. وانظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦٢.
(١٩٢) يوسف ، ٥٩.
(١٩٣) الحديد ، ١٦.
(١٩٤) القيامة ، ٣٧.
(١٩٥) النساء ، ١٤١.
(١٩٦) الانشراح ، ١.

ـ التقرير والتلطف : مثل قوله تعالى «إذْ تَقُولُ للمؤمنين ألنْ يكفيكُم أن يُمدّكم ربُكم بثلاثةِ آلافٍ مِنَ الملائكَةِ مُنْزلين ؟ » (١٩٧).

ـ التقرير والتعظيم : نحو قوله تعالى : «أليسَ اللهُ بُأحْكَمِ الحَاكمين ؟» (١٩٨).

ـ التقرير والتهكم : كقوله تعالى : «وَ يَوْمَ يُعرضُ الذينَ كفَروا على النَّارِ أليسَ هَذا بالحق ؟ » (١٩٩).

ـ التقرير والوعيد : كقوله تعالى : «أليسَ اللهُ بُعزيزٍ ذي انتِقَام ؟» (٢٠٠).

ـ التقرير والتعظيم والتهكم : نحو قوله تعالى : «قل أأنْتُمْ أعلم أم الله ؟ » (٢٠١).

ـ التقرير والتعظيم والتوبيخ : كقوله تعالى : «أأربابٌ متفوقون خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهّار؟» (٢٠٢).

ـ التقرير مع طلب الاعتراف : مثل قوله تعالى : «ثم يقولُ للملائكةِ : أهؤلاء إيّاكُم كَانوا يَعْبُدون ؟ » (٢٠٣).

ـ الوعيد : ومن أمثلته قوله تعالى : «أفَمَنْ يلقَى في النّارِ خَيْرٌ أمْ من يأتي آمنا يومَ القيامة ؟ (٢٠٤) «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فعلَ ربُّكَ بِعَاد ؟ » (٢٠٥).

وقد جاء التهديد مصاحبا لإنكار الواقع كقوله تعالى : «أأمنْتُم مَنْ في السّماء أن يَخْسف بكم الأرضَ ، فإذا هي تَمُور؟ (٢٠٦). وقوله «أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتْرك سُدى ؟ » (٢٠٧).

(١٩٧) آل عمران، ١٢٤.
(١٩٨) التين، ٨.
(١٩٩) الأحقاف، ٣٤.
(٢٠٠) الزمر، ٣٧.
(٢٠١) البقرة، ١٤٠.
(٢٠٢) يوسف، ٣٩.
(٢٠٣) سبأ، ٤٠.
(٢٠٤) فصلت، ٤٠.
(٢٠٥) الفجر، ٦.
(٢٠٦) الملك، ١٦.
(٢٠٧) القيامة، ٣٦.

وجاء التهديد مصاحبا للتقرير بمعنى الإثبات، كقوله تعالى: «إنّ موعدَهُم الصبح، أليْسَ الصبحُ بِقَريب؟» (٢٠٨).

تأمل قوله تعالى: «و يلٌ يومئذٍ للمكذّبين، ألَمْ نُهلك الأولين، ثمّ نتبعُهُم الآخرين؟» (٢٠٩). والمعنى و يل للمكذبين في ذلك اليوم الهائل الذي هو يوم الفصل، فقد علمتم هلاك المكذبين لرسلهم من لدن آدم إلى محمد عليه السلام، بالعذاب في الدنيا، فلكم في ذلك عبرة وعظة يا كفار مكة، أنتم ومن وافقكم في تكذيب محمد عليه السلام، فإن لم تعتبروا وتدخلوا في دين الله فسيكون مصيركم مثل مصير هذه الأمم قبلكم. فأنت تحس الوعيد للكفار في هذه الآيات، وترى صورتهم الضالة، وهم يعلمون ما حدث للمكذبين من قبلهم.

وعلى ذلك فلا مكان للاستفهام، بل المقام للوعيد، وجاء بصورة الاستفهام، ليلفت الكفار إلى النظر، والتفكير في مآلهم، لعلهم يرشدون.

والعلاقة بين الاستفهام والوعيد اللزوم، فإن الاستفهام ينبه المخاطب، وهذا يستلزم وعيده، فهو مجاز مرسل من استعمال اسم الملزوم في اللازم.

ولك أن تجعل الكلام من قبيل الكناية، بأن تجعل اللفظ مستعملا في الاستفهام، لينتقل منه إلى الوعيد، والغرض تصوير المتكلم وقد كتم غيظه، وترجم عنه بلفت انتباه المخاطب (٢١٠).

الاستبعاد: وهو عد الشيء بعيدا حسا ومعنى، وقد يكون منكرا مكروها غير منتظر أصلا، وربما يصلح المحل الواحد له وللاستبطاء، وعلى هذا قد يخرج الاستفهام عن معناه

---

(٢٠٨) هود، ٨١، وانظر: أساليب الاستفهام، ص ٢٢٢ وما بعدها، ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩.

(٢٠٩) المرسلات، ١٥ ــ ١٦.

(٢١٠) من بلاغة النظم العربي ج ٢، ص ١١٣.

الأصلي للدلالة على استبعاد السائل للمسؤول عنه، ومثال ذلك قوله تعالى: «فَقَالَ الكافِرُونَ هَذا شيءٌ عَجِيب، أإذا مِتْنا وكُنَّا تُرابَا ذلِكَ رجعٌ بَعِيد؟» (٢١١).

يتعجب الكفار من فكرة البعث، و يوضحون سبب تعجبهم بقولهم: «هل حين نموت ونصير ترابا نرجع ثانيا أحياء؟ ذلك الرجوع الذي يقول به محمد رجوع غير ممكن، فرد سبحانه تعجبهم واستبعادهم بقوله: «وقد عَلِمنَا ما تنقُص الأَرضُ منهم» (٢١٢). فلا يستبعد علينا جمعها بعد تفرقها.

فليس المراد بالاستفهام هنا المعنى الحقيقي، ولكنه خرج إلى معنى الاستبعاد، وسر التعبير بالاستفهام مقام الاستبعاد، أن الاستفهام يوحي بحيرة الكفار واستبعادهم لأمر هذا البعث، ولا ريب أنه أبلغ وأجمل من أن يعرض قول الكفار في صورة خبرية، حيث أن في الاستفهام إيجازا، وإلهابا وجذبا للانتباه، وإرهافا للمشاعر، والحث على التفكير، والدعوة إلى المشاركة، وتصوير لحال المتكلمين.

واستعمال الاستفهام في مقام الاستبعاد من قبيل المجاز المرسل، والعلاقة بين الاستفهام والاستبعاد أن الاستفهام مسبب عن استبعاد الوقوع، لأن بعد الشيء يقتضي الجهل به، والجهل به يقتضي الاستفهام عنه، فالعلاقة المسببية (٢١٣).

التعجب: وقد يأتي الاستفهام بمعنى التعجب، وذلك في مقام يتعجب فيه المتكلم من مضمون الكلام، نحو: «ألمْ تَرَ إلى رَبّك كيف مدّ الظّل؟» (٢١٤).

و يأتي التعجب مع التنبيه كقوله تعالى: «أفرأيتَ الّذي كَفَر بآياتِنَا وقَال لأ وتينَ مَالاً وولَداً، اطّلَع الغَيْبَ أم اتّخذَ عندَ الرحمنِ عَهْدَاً؟» (٢١٥).

(٢١١) ق، ٢، ٣.
(٢١٢) ق، ٤.
(٢١٣) من بلاغة النظم العربي، ج ٢، ص ١٠٥—١٠٦.
(٢١٤) الفرقان، ٤٥.
(٢١٥) مريم، ٧٧.

و يكثر التعجب في الأفعال كثرة ظاهرة، و يقل في النسب، وقد جاء فيها كما في قوله تعالى: «أأعجميٌ وعربي ؟» (٢١٦).

ولا يكون من الذوات بل مما جرى لها، قال أبو حيان: (التعجب لا يكون من الذوات بل مما جرى لها، ولهذا يقدر في «ألَمْ تَرَ إلى الملأ مِنْ بَني إسرائيل ؟» (٢١٧) ألم تر إلى قصتهم وحديثهم) (٢١٨).

وللتعجب صلة بالإنكار، كما في قوله تعالى: «أتَأْمُرونَ الناس بالبر وتَنْسونَ أنْفُسَكم ؟» (٢١٩) واستعمال الاستفهام في مقام التعجب مجاز مرسل من استعمال اسم الملزوم في اللازم، وذلك لأن السؤال عن الحال، وهو السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب. وفي التعبير بأسلوب الاستفهام، مقام التعجب إثارة وتحريك (٢٢٠).

وفي قوله تعالى: «قَالَتْ يَا وَيْلَتا أَأَلِدُ وأَنا عَجُوزٌ وهَذَا بَعْلي شيخاً إنّ هذا الشَيء عَجِيب» (٢٢١) استعملت أسلوب الاستفهام مكان التعجب، لتعبر عن خلجات نفسها، وتصور فرحتها، وتحرك السامعين وتجذب انتباههم بأجمل طريق وأوجزه.

التوبيخ: وهو اللوم والتقريع على أمر قد وقع في الماضي، أو على أمر يخاف المرء أن يقع في المستقبل، بأن كان المخاطب بصدد أن يفعله. فإذا كان التوبيخ في الماضي كان المعني: ما كان ينبغي أن يكون، فالفعل واقع، والمنفي هو الانبغاء، وقرينته أن يكون المقام للتأنيث كما في قول امرىء القيس: (٢٢٢).

---

(٢١٦) فصلت، ٤٤.

(٢١٧) البقرة، ٢٤٦.

(٢١٨) البحر المحيط، ج ١، ص ٣٣١. وانظر أساليب الاستفهام، ص ٢١٩.

(٢١٩) البقرة، ٤٤.

(٢٢٠) من بلاغة النظم العربي، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢٢١) هود ٧٢.

(٢٢٢) امرؤ القيس بن حجر (ت نحو ٨٠ق.م) ديوان امرىء القيس، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ط ٤، (د.ت)، ص ١٣.

أَغـرَّكِ مـنّـى أنّ حُـبّـكِ قَـاتِلِي وأنّكِ مَـهْـمَـا تَأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَلِ؟

فهو يريد أن يقول : ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك ، وتعتقدين أنني أصبحت متيماً في هواك ، أفعل ما تأمرين به ، ولعلنا نحس التصوير الفني الجميل ، لنفسية امرىء القيس وقصة حبه ، مع ما في التعبير من إيجاز بديع .

وإذا كان التوبيخ في المستقبل كان معناه : أنه لا ينبغي أن يكون ، أي لا ينبغي أن يحدث ما دخلت عليه أداة الاستفهام ، وهو لا يقتضي وقوع الموبخ عليه بالفعل ، وإنما يقتضي كون المخاطب بصدد الفعل ، ومثله قولنا « أتنسى قديم إحسان فلان ؟ » والغرض بذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل و يرتدع (٢٢٣) .

التحقير : عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضآلة المسئول عنه ، وصغر شأنه مع معرفة المتكلم ، أو السائل به ، والاحتقار فيه اظهار حقارة المخاطب واظهار اعتقاد صغره ، ولذلك يصح في غير العاقل .

ومما ورد منه في القرآن الكريم قوله تعالى على لسان الكفار : « أهذَا الذي بعثَ اللهُ رَسُولاً ؟ » (٢٢٤) « أهَذا الذي يذكر آلهتَكُم » (٢٢٥) .

التهكم : و يقال له السخرية والاستهزاء ، وهو إظهار عدم المبالاة بالمستهزأ أو المتهكم منه ولو كان عظيما ، مثال ذلك قوله تعالى : « قَالُوا يا شُعيب أصلاتُك تأمُرك أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُد آباؤنا أوْ أن تَفْعَل في أموالِنا مَا نشاء؟ » (٢٢٦) يقول الكفار من قوم شعيب مستهزئين به لكثرة صلاته ، يا شعيب هل صلاتك التي تداوم عليها ، هي التي تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد أباؤنا من هذه الأصنام ، وأن نمتنع عن التصرف بما ينمي

(٢٢٣) من بلاغة النظم العربي ، ج ٢ ، ص ١١٦ — ١١٧ .
(٢٢٤) الفرقان ، ٤١ .
(٢٢٥) الأنبياء ، ٣٦ .
(٢٢٦) هود ، ٨٧ .

أموالنا كما نشاء مما نراه في مصلحتنا، وتحس في قول شعيب التهكم والاستهزاء والسخرية، وعبروا عن هذا بطريق الاستفهام ليدلوا على ثباتهم وكفرهم (٢٢٧).

ومثاله قوله تعالى: «أعندَهُ علمُ الغيبِ فَهويَرى ؟» (٢٢٨) وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: «فَراغَ إلَى آلِهتهم فقالَ: ألاَ تَأْكُلون ؟ مَالَكُم لا تَنْطِقُون ؟ (٢٢٩) ومنه قول المتنبي في الدمستق:

أَفِي كُلِّ يومٍ ذَا الدَّمستقُ مقدمٌ قَفاه علَى الإقْدامِ للوَجْهِ لائم (٢٣٠)

ومعناه: أكل يوم يقدم الدمستق عليك يا سيف الدولة ثم يفر، فيلوم قفاه وجهه على إقدامه قائلا له: لم أقدمت حتى عرضتني للضرب بهزيمتك ؟ وذلك أن إقدامه سبب هزيمته والضرب في قفاه.

والفرق بين التحقير والتهكم أن التهكم قد يكون بمن هو عظيم في نفسه بخلاف التحقير (٢٣١).

الأمر: وقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي للدلالة على معنى الأمر، ومنه قوله تعالى «أأسْلَمْتم ؟ (٢٣٢) أي أسلموا، وقوله «أفرأيْتُم اللاّت والعُزّى ومنَاةَ الثّالِثَة الأُخرى ؟» (٢٣٣) أي أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة التي كانوا يزعمون أنها تمثل بعض الملائكة، وكانوا يتقربون بها إلى الله. ومنه قوله تعالى: «أفرأيْتَ الذّي تَولّى، وأَعْطَى قَلِيلا وَأَكْدَى ؟» (٢٣٤) وقوله: «أَرَأيْتَ الذي يَنْهَى، عَبْداً إذا صَلّى، أَرَأيْتَ إنْ كَانَ علَى الهُدى، أَوْ أمر بالتّقْوى، أَرَأيْت إن كذّب وتَولى ؟» (٢٣٥) أي أخبرني أيّها

(٢٢٧) من بلاغة النظم العربي، ج ٢، ص ١٢٨.
(٢٢٨) النجم، ٣٥.
(٢٢٩) الصافات، ٩١.
(٢٣٠) شرح ديوان المتنبي، مج ٢، ج ٤، ص ١٠٥.
(٢٣١) من بلاغة النظم العربي، ١٢٨.
(٢٣٢) آل عمران، ٢٠.
(٢٣٣) النجم، ١٩.
(٢٣٤) النجم، ٣٣.
(٢٣٥) العلق، ٩.

السامع ، عن حال هذا الرجل ، أهو على هدى عندما يمنع عبدا من طاعة ربه ، أو أهو أمر بالتقوى عندما أمر غيره بعدم إطاعة خالقه ؟ ثم أخبرني عندما كذب رسولنا ، وأعرض عن طاعة ربه ، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا ؟ كلا .

واستعمال صيغة الاستفهام في مقام الأمر، من باب المجاز المرسل ، لعلاقة الإطلاق والتقييد ، لأن الاستفهام ، طلب الإقرار بالجواب : مع سبق جهل المستفهم ، فاستعمل في مطلق الطلب ، ثم استعمل في الطلب على سبيل الاستعلاء ، وهو الأمر (٢٣٦) .

ومما يتضمن معنى الأمر من أساليب الاستفهام ، ما أفاد إنكار الواقع في النفي ، مثل : « أَفَلا تَعْقِلون ؟ » وما شابهها ، إذ المعنى الذي أفاده الاستفهام ، إنكار عدم التقوى والأمر بها (٢٣٧) .

التسوية : وربما توهم أن المراد بها الهمزة الواقعة بعد كلمة سواء بخصوصها ، وليس كذلك ، بل كما تقع بعدها تقع بعد « ما أبالي » ، « وما أدري » ، و « ليت شعري » ، ونحوهن ، والضابط أنها الهمزة الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلها ، نحو « سواءٌ عليهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُم أمْ لَمْ تَسْتَغْفِر لَهُم » (٢٣٨) ونحو « ما أبالي أقمت أم قعدت » ألا ترى أنه يصح سواء عليهم الاستغفار وعدمه ، وما أبالي بقيامك وعدمه (٢٣٩) .

ومن أمثلة التسوية قوله تعالى : « إنّ الذِينَ كَفَرُوا سواءٌ عُليْهِم أأنذرتهم أمْ لَمْ تنذرهُم لا يُؤْمِنُون ؟ » (٢٤٠) فهم يعلمون مسبقا أنهم أنذروا ، ومع ذلك أصروا على كفرهم وعنادهم ، ولهذا يجيء الاستفهام هنا للدلالة على أن إنذار الرسول وعدمه بالنسبة لهم سواء ، ومن أجل ذلك خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ، ليؤدي معنى مجازياً بلاغياً هو

(٢٣٦) انظر: في البلاغة العربية (علم المعاني)، ص ١١٧ ، من بلاغة النظم العربي، ج ٢ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

(٢٣٧) أساليب الاستفهام ، ص ٢٣٣ .

(٢٣٨) المنافقون ، ٦ .

(٢٣٩) انظر: مغني اللبيب ، ص ١٧ .

(٢٤٠) البقرة ، ٦ .

التسوية (٢٤١). ومنه قول المتنبي: (٢٤٢)

ولستُ أُبالي بَعْدَ إدْرَاكِيَ العُلا أكانَ تُراثاً مَا تناولتُ أمْ كَسْبَا ؟

التحسر: و يستعمل الاستفهام في معنى التحسر وذلك في مقام يظهر فيه المنكر الحزن على شيء مضى. ومثال ذلك قول البارودي في رثاء زوجته: (٢٤٣)

يَا دَهْرُ فيمَ فَجَعْتَني بِحَلِيلَةٍ كَانَتْ خلاصة عدَّتي وعتَادي
إنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضناني لبُعْدِها أفَلاَ رَحِمْتَ مِنَ الأسى أوْلادي ؟

وقد عبر بالاستفهام مقام «التحسر» للإشارة والإلهاب، وجذب المشاعر ودعوة الناس، لمشاركته في حسرته وأساه.

واستعمال الاستفهام في مقام التحسر من قبيل المجاز المرسل، والعلاقة المسببية (٢٤٤).

التشويق: وفيه لا يطلب السائل العلم بشيء لم يكن معلوما له من قبل، وإنما يريد أن يوجه المخاطب و يشوقه إلى أمر من الأمور، نحو قوله تعالى: «قُلْ أونَبِئكم بخيرٍ من ذَلِكُم ؟ للذين اتّقوا عندَ رَبّهم جَنّات» (٢٤٥).

و يكثر هذا النوع في الحديث النبوي، وأكثر ما جاء قد دخلت فيه همزة الاستفهام على (لا) فاكتسب معنى العرض، أو معنى الاستفتاح، بحسب ما يليه المقام، فإذا كان المركب منهما استفتاحا تلته أداة استفهام أخرى كما يلي:

(٢٤١) في البلاغة العربية (علم المعاني)، ص ١١٥. وانظر: الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، الجني الداني في حروف المعاني، تح، فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٢؛ علي بن محمد النحوي الهروي (ت ٤١٥هـ/١٠٢٤م)، الأزهية في علم الحروف، تح، عبد المعيد الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١، ص ١٣٤ وما بعدها.

(٢٤٢) ديوان المتنبي شرح أبي البقاء العكبري، دار الفكر، بيروت، مج ١، ص ٦٠.

(٢٤٣) البارودي محمود سامي (ت ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م)، ديوان البارودي، تح، علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ج ١، ص ٢٣٨.

(٢٤٤) من بلاغة النظم العربي، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢٤٥) آل عمران، ١٥.

ـ عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم تسعة، أو ثمانية، أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فبسطنا أيدينا وقلنا: علام نبايعك يا رسول الله؟ قال: على أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركون به شيئاً، وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية قال: ولا تسألوا الناس شيئاً، قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سقوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله» (٢٤٦).

ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع «ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمه؟ قالوا شهرنا هذا، قال: ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة قالوا: ألا بلدنا هذا، قال: ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة؟ قالوا: ألا يومنا هذا قال: فإن الله تعالى حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ كل ذلك يجيبونه: ألا نعم قال: ويحكم أو يلكم! لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (٢٤٧).

في الحديث الأول كان عرض المبايعة من النبي على الصحابة بطريق الاستفهام، وفيه من اللطف وجلب الأمتثال وتحريك كامنة المخاطب ما ليس في صيغة الأمر: (بايعوني) لأنه يشعر المخاطب بشخصيته، وأنه طرف حر السلوك والاختيار، خلافا لظاهر صورة الأمر الذي يوحي بالعلو والإلزام، وذلك التلطف في الطلب أولى بلباقة الداعي عليه السلام، لأنه من معدن فصاحته، والحديث الثاني يثير انتباه المخاطبين بأداة الاستفتاح، وهي حرف مركب من أجزائه الاستفهام، ثم يسوق السؤال بعد الانتباه تجاهل عارف أو استدراك مخاطب، ليزيد قسر انتباهه، وكامن شوقه، لمعرفة سر العدول بالاستفهام عن المعلوم، و يتكرر هذا النوع مع الشهر والبلد واليوم، صعوداً باليقظة إلى قمتها، ثم يأتي بالخبر الذي يستوجب هذا التصعيد في إحضار كل القوى النفسية المدركة، وهو تحريم الله ما ذكر في

(٢٤٦) تيسير الوصول، ج ١، ص ٢٠.

(٢٤٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠.

الحديث، تحريماً مؤكدا بتشبيهه، بما أقروا على أنفسهم بأنه أعظم حرمة من كل جنسه، غير أن هنالك ضربا من العمق في التأكيد لهذه الحرمة، يلاحظ في العبارة البالغة كل الدقة، وهو دخول اليوم في الشهر في البلد، حرمات ثلاث بعضها فوق بعض هي المشبه به ليس واحدا منها على الانفصال، فإذا نشطنا من الإحساس بهذا التأكيد، اجتذبنا آخر في صورة اشهاده على نفسه بالبلاغ براءة من التقصير، وهي دون تكريرها ثلاثاً كافية في ترك المخاطب مشدوها فكيف بها مجتمعة (٢٤٨).

ومن استعمال الاستفهام بطريق العرض تشويقاً إلى ما يذكر بعده ليتمكن و يستقر:

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا، قلنا: بلى. قال الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا: «ليته سكت» (٢٤٩).

ومن الاستفهام دون عرض تشويقا واستدراجاً لتقرير الحكم:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلاّ ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر» (٢٥٠).

والسؤال يضع العقل من المخاطب لسان الميزان، ليصل عن طريق النظر في العاقبة إلى اختيار سبيلها، ولا يخفى ما فيه من التلطف في النصح، المرتب على المقارنة، وهو خير من الأمر المحض ببذل المال في سبيل الخير، لأن السائل يحصل بالاستفهام على حكم من المخاطب، يخجل لو تعداه، لأنه حكم منه على نفسه (٢٥١).

(٢٤٨) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص ٣٤٩.

(٢٤٩) تيسير الوصول، ج ٤، ص ١٣٥.

(٢٥٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨١.

(٢٥١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص ٣٥١.

النفـــي : وذلك عندما تجيء لفظة الاستفهام للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهولا ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : «أفأنْتَ تنقذُ مَنْ فِي النَّار؟ (٢٥٢) أي : لا تنقذ وقوله : «أَنُؤْمِنُ كَما آمنَ السُّفَهاءُ ؟ (٢٥٣) أي : لا نُؤْمن .

النهـــي : أي طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء نحو قوله تعالى : «أتَخْشونهم ؟ فَالله أحقُّ أنْ تَخْشوهُ» (٢٥٤) أي : لا تخشوهم .

الاختبـــار: وذلك حين يكون السائل عالما ، و يريد امتحان المخاطبين واختبار معارفهم ، قوله تعالى : «قيل أهكذا عَرْشُك ؟ قالتْ كأنَّهُ هُوَ، وأوتينَا العِلْمَ منْ قَبْلِها» (٢٥٥) فالمراد اختبار بلقيس أتهتدي إلى عرشها أم لا ، وأسلوب الاختبار يعقبه الجواب الذي قد يتبع بالجواب الصحيح .

الاستبطـــاء : مثل «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله» (٢٥٦) .

وفي نهاية البحث لا بدَّ من الإشارة إلى النقاط التالية :

١ ــ لهمزة الاستفهام استعمالان ، أحدهما : أن يكون المعلوم هو النسبة والمجهول هو المفرد ، فيطلب بها معرفة المفرد ، والثاني ، أن يكون المجهول هو النسبة فيطلب بها معرفة النسبة ، وتسمى معرفة المفرد تصورا ، ومعرفة النسبة تصديقا ، وربما تصلح الهمزة في المثال الواحد للتصور والتصديق . تقول «أعلي جاء من السفر ؟» فتجعل ذلك للتصديق سؤالا عن الحكم ، فتكون الإجابة بنعم أو لا ، ولا يجوز أن نذكر المعادل ، ولكننا يمكن أن نجعل هذين المثالين للتصور فنقول «أعلي جاء من السفر أم صالح ؟» ، «أفنون البلاغة صعبة أم علم النحو؟» ... فهنا يجوز أن نجعل المثالين للتصديق تارة ، ولا يذكر بعدها المعادل ، وللتصور تارة ، ويجوز ذكر المعادل بعدها ،

(٢٥٢) الزمر ، ١٩ .
(٢٥٣) البقرة ، ١٢ .
(٢٥٤) التوبة ، ١٣ .
(٢٥٥) النمل ، ٤٢ .
(٢٥٦) الحديد ، ١٦ .

وذلك لأن قضية التصور والتصديق إنما ترجع إلى اعتبار المتكلم وقصده وغرضه من الكلام، وفهم المتكلم له، فقد يسأل عن الحكم وقد يسأل عن المفرد وقد يقصد هذا أو ذاك »(٢٥٧).

٢ ــ الهمزة أوفر أدوات الاستفهام دلالة على المعاني البلاغية، فجاءت للإنكار بكل أنواعه، وكثرت دلالتها عليه، وللتشويق، وللأمر، وللتعجب، وللتقرير...

٣ ــ نالت همزة الاستفهام حظا وافراً من اهتمام النحويين البلاغيين وذلك لما لها من أثر في المعنى. وقد فرّقوا بين أدوات الاستفهام والهمزة.. كذلك فإن الهمزة تدخل على الإثبات، وعلى النفي، وأنها إذا كانت في جملة معطوفة بالواو، و بالفاء، أو بثم، قدمت على العاطف تنبيها على أصالتها في التصدير...

٤ ــ يجوز حذف همزة الاستفهام، وهنا يساعد التنغيم في تمييز الأساليب بعضها من بعض وفي معرفة معنى الكلمة، أو الجملة حين توجد عدة معان محتملة، و يلعب دوراً كبيراً في الدلالة على الأسلوب الاستفهامي، أو نقل مشاعر المتكلم، وآرائه للمستمع.

٥ ــ قامت التصنيفات النحوية على نظرية العامل وتبرير الحركة الإعرابية، من غير بحث عميق في التراكيب الجملية، فقسموا ــ على سبيل المثال ــ الجملة إلى اسمية وفعلية حسبما جاء في صدرها، ثم جاء البلاغيون فقسموا الجملة إلى إنشائية وخبرية، وشايعهم أصحاب علم اللغة المعاصر، وأضافوا قسماً ثالثاً، سموه الجملة الإفصاحية... ونحن نرى أن ضمّ جهود النحاة في تقسيم الجملة، وتبرير الحركة الإعرابية، وجهود البلاغيين في البحث عن معنى التراكيب هو المنهج الذي يؤدي حقا إلى دراسة لغوية نافعة. ولعل الجرجاني أول من سار على هذا المنهج في كتابه «دلائل الإعجاز».

٦ ــ وأخير لابد من الوقوف عند تحليل عدد من الجمل تحتوي على همزة الاستفهام لملاحظة موقع الهمزة في الجملة، وزيادتها تارة، وحذفها تارة أخرى، وهذه الجمل هي :

(٢٥٧) البلاغة فنونها وأفنانها، ص ١٢٢.

١ ــ ذهب محمد .

٢ ــ أذهب محمد ؟

٣ ــ أمحمد ذهب ؟

٤ ــ أحشفا وسوء كيلة ؟

٥ ــ بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر؟

٦ ــ قال تعالى : «أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؟» .

(١)

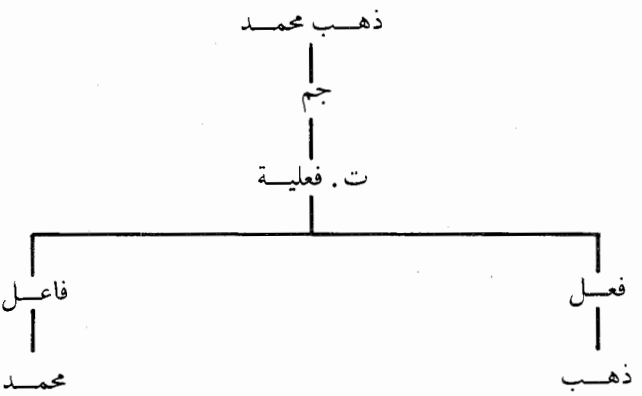

(٢)

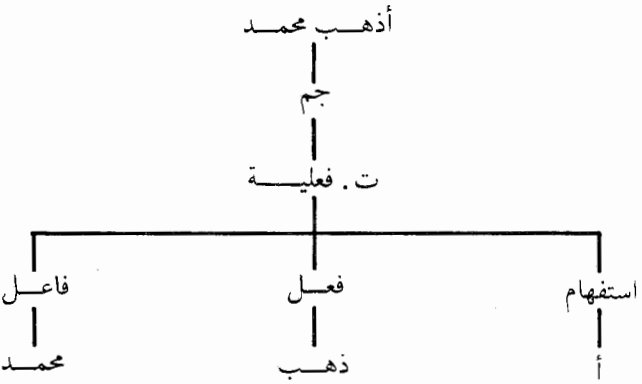

اصطلاحات :

١ ــ ت.س : تركيبة اسمية.

٢ ــ ت.ف : تركيبة فعلية.

٣ ــ جم : جملة.

٤ ــ ⊖ : Zero Morpheme

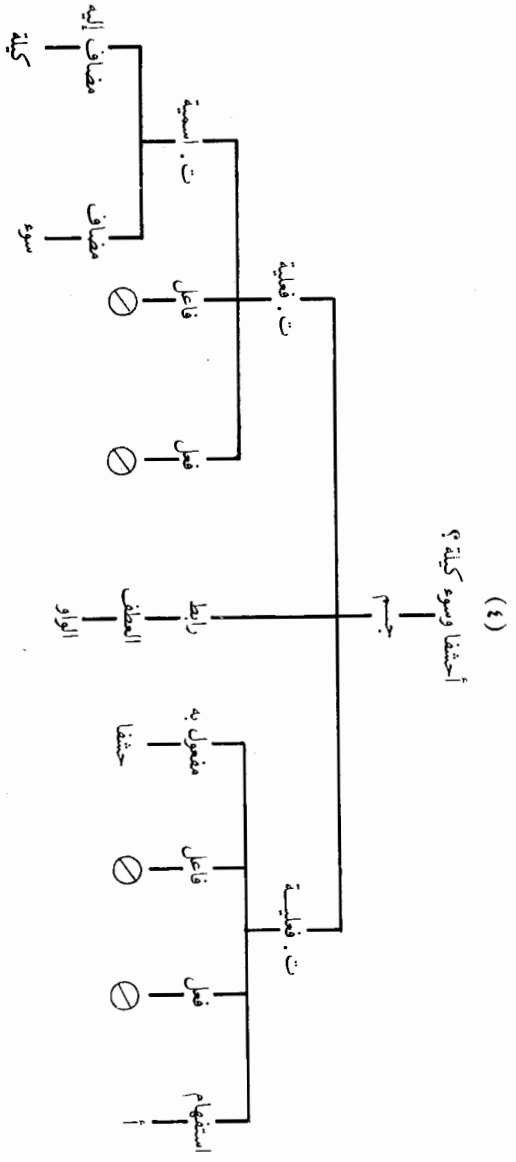
(٣)
أعصد ذهب؟
جملة
ت. اسمية
استفهام
أ
اسم ابتداء
محمد
ت. فعلية
فعل
ذهب
فاعل
(٤)
أحشفا وسوء كيلة؟
جملة
ت. فعلية
استفهام
أ
فعل
فاعل
مفعول به
حشفا
رابط
العطف
الواو
ت. فعلية
فعل
فاعل
ت. اسمية
مضاف
سوء
مضاف إليه
كيلة

(٥)

ليلاي منكن أم ليلى من البشر؟

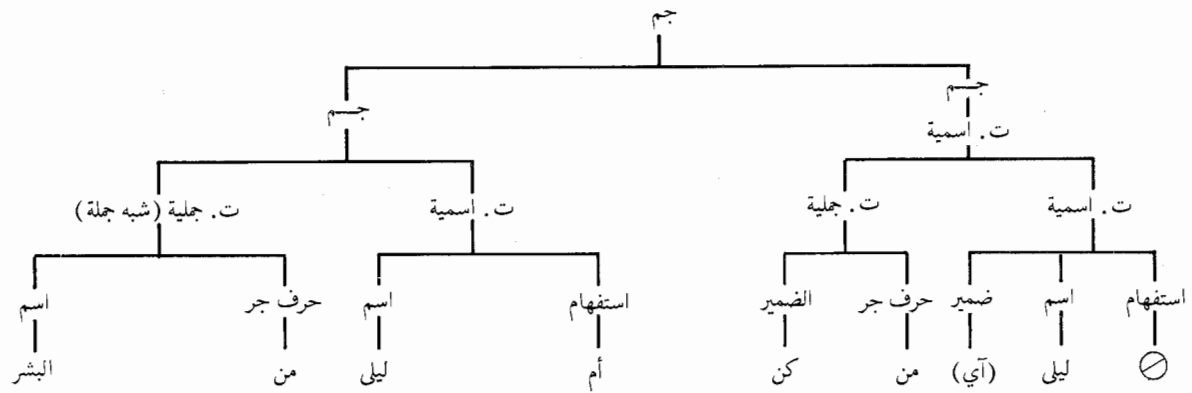

(٦)

قال تعالى: «أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ؟»